


سلسلة كتاب الجيب

A - 105

١٠٥-أ

دوامة الزواج

باربرا كارتلاند

www.rewayti.net

الفصل الأول

أوقف دوق باكهرست عربته التي تقودها جياده الأصيلة امام منزله المثير العجيب في بارك لاين.

ثم سحب ساعته التي يعلقها في جيب سترته وقال بنبرة راضية: «ساعة واثنين وخمسين دقيقة، اعتقد انه رقم قياسي يا جيم!»

اجابه جيم من المقعد الخلفي للعربة: «اسرع بدقيقتين من المرة الفائتة يا سيدي.»

ابتسم الدوق من خلال شفتيه الغليظتين نوعاً ما، وخرج من العربة لتطأ قدماه السجاد الأحمر الذي تدحرج بسرعة فوق الدرجات بفعل خادمين يرتديان بزات مميزة خاصة بعائلة الدوق.

دخل الدوق إلى ردهة المنزل المرمرية التي فيها سلمان مزدوجان يؤديان إلى الطابق الأعلى، فأسرع نحوه خادم آخر ليأخذ منه قبعته وكفي القيادة.

ثم قال باحترام: «ان المركيزة والسيدة بريدون ينتظرانك في الصالة يا سيدي.»

تذمر الدوق قائلاً: «أف منهما!»

وكان على وشك ان يغير طريقه عندما سمع وقع خطوات وراءه، فقد كان المركيز هول يدخل في تلك اللحظات من الباب المفتوح.

www.rewayti.net

ثم هتف دون أي داع لذلك: «مرحباً يا باك، اراك قد وصلت اخيراً!»

فسأله الدوق: «ما الذي يجري هنا، هل هو اجتماع سري للعائلة؟»

اجابه المركيز: «نعم، انه كذلك.»

اطبق الدوق على شفتيه ولم يقل شيئاً للحظات قليلة، لكنه علق بعد ذلك بالقول: «قل لشقيقتي بأنني سأعود بعد قليل ولن اجعلهما تنتظران طويلاً، وأرى ان تقدم لهما الشراب المنعش بنفسك لأنني كما الاحظ، ان مزاجهما عكر بعض الشيء.»

لم يضحك المركيز هول من هذا التعليق، بل توجه عائداً إلى الصالة بغرور وانفة، بينما صعد الدوق على مهل فوق الدرجات إلى غرفته الخاصة.

لقد ابلغ قبل الآن بأن شقيقتيه ترغبان في رؤيته عندما كان لا يزال في الريف، وكان يتوقع كعادته، بأنهما ستوبخانه على خطأ قد يكون قام به.

كان يعلم بالرغم من شعوره بأن ما قام به ليس من شأنهما، ومن خبراته الطويلة معهما، أنهما سيدوران ويلفان حول الموضوع حتى يرهقا اعصابه.

كانتا تكبران الدوق ببضعة سنوات، فعندما جاء إلى هذا العالم وقد حقق بذلك احلام وطموحات والده، كان في نظر الناس حوله، ولد مدلل منذ نعومة اظفاره.

كما ان الشقيقتين لعبتا دوراً كبيراً في افساد اخلاقه بسبب تدليلهما المفرط له، حتى انه عندما بلغ سن الرشد،

اخذت النساء الجميلات تلاحقنه من كل حدب وصوب. ليس من العجب ان يحدث ذلك، خاصة وانه وسيم جداً، وثري، كما انه يرأس احدى اهم العائلات النبيلة في البلاد، وهو لم يكن فقط فاسد الأخلاق، بل تضرب به الامثال السيئة في المجتمع.

وبما انه لا يمكن للمرء ان يخفي أي شيء عن نفسه في مجتمع كهذا، فإنه لم يقف الأمر فقط عند الثرثرة وانتشار الأقاويل، بل تعداه إلى الصحف التي كانت تصوره في الصفحة الكاريكاتورية بأشكال مختلفة وتكتب التعاليق الساخرة عنه، حتى كان بعض الناس ينظرون اليه باعجاب لا يخلو من الحسد.

كان كلما يظهر في ميدان سباق الخيل، يصفق الناس له بابتهاج من جميع الجهات واكثر من الملك نفسه، وكان عندما يقود عربته إلى البيكاديللي، يتحولون بانظارهم إليه باعجاب ودهشة ولا يبعدونها عنه الا عندما يختفي في آخر الشارع.

حتى ان سائق احد العربات هتف عندما شاهده لأول مرة: «انه والحق يقال، ليس فقط رجل رياضي، بل رجل بكل ما في الكلمة من معنى!»

والأمر المتعذر تجنبه، انه وبنظر هؤلاء الذين يعتبرون انفسهم انهم من دعائم هذا المجتمع الراقي، انه يتمادى بافعاله واعماله.

حتى ان الامهات كن تبعدن بناتهن عن أي مكان يجدونه فيه، لكن هذا الحذر، لم يكن ضرورياً على الاطلاق، لأن الدوق لم يكن يهتم بهذه الأمور.

لذا، لم يكن اعضاء عائلته يوافقون على افعاله وعن الثرثرة التي تحوم حوله، والذي كان يقلقهم، انه لم يهدأ ويستقر وقد بلغ الرابعة والثلاثين من عمره.

لوى الدوق فمه مشمئزاً بينما كان يخلع عنه ملابس السفر ويفكر بالذي سيسمعه والذي اعتاد عليه، بأن عليه أن يستقر وان يتزوج ويبتعد عن كل هذه الأمور.

ثم سأل نفسه بصوت مسموع: «ما الذي يجبرني على الزواج؟» ولم يجبه خادمه الخاص الذي كان يخدمه منذ سنوات عديدة، علماً منه بأن الدوق كان يكلم نفسه كعادته. ثم قال الدوق يكلم خادمه الخاص هذه المرة: «سأذهب غداً إلى نيوماركت يا ياتس وبما انني اريدك ان تكون هناك عندما اصل اليها، فعليك ان تغادر قبل ساعة من مغادرتي.»

اجاب ياتس: «حاضر يا سيدي، ولقد حزمت امتعتي قبل الآن.»

«عظيم!»

لكن الدوق، كان يفكر بشيء مختلف تماماً وهو يترك غرفته إلى الطابق الأسفل. فلا من رجل يمكنه ان يكون انكى أو أروع مما هو عليه.

لكنه وبالرغم من ذلك، ينزعج كثيراً عندما يناديه البعض بالمتأنق، بينما كان يرضى باسم اللقب باك الذي سمي به منذ ان كان تلميذاً في المدرسة. ان الفرق بينه وبين غيره من الرجال الذين يفرطون باناقتهم، انه عندما كان يخيط ملابسه يطلب ان تكون مفصلة عليه تفصيلاً كاملاً وكأنها جزء لا يتجزأ منه.

لكن في الوقت نفسه، لا احد يجيد عقد ربطة عنقه بمثل ما يجيدها ويتقنها، كما ان ياتس كان يعلم انه حتى الدهان الذي يستعمله على جزمة الدوق، كان يثير حسد وغيرة أي خادم خاص في هذا المجتمع الراقي.

شعر الدوق حالما وصل إلى باب القاعة المفتوح الذي ظهرت من خلاله شمس الربيع الدافئة تشع فوق أوراق الشجر الخضراء، بأنه لا يرغب بلقاء عائلته، بل يفضل ان يعود إلى الريف.

ان الشيء الذي يكرهه اكثر بكثير من غيره، هو معاتبة وتوبيخ شقيقتيه له.

وقد كان الدوق متأكداً انه وبالرغم من خوفهما من ان تقولان كل ما تحملانه في صدرهما، بأن النصف الساعة المقبلة، ستكون صعبة وشاقة.

«لماذا لا يتركاني وشأني؟» قال الدوق بينه وبين نفسه بينما اسرع الخادم امامه ليفتح له باب الصالة.

دخل إلى الغرفة وقد استرعى انتباهه الهدوء والسكينة، مما اكد له، ان العائلة كانت تتحدث عنه قبل ظهوره المفاجيء عليهم.

كانت شقيقته الكبرى تتمتع بجمال رائع عندما كانت شابة، ولقد اعتبر زواجها من المركيز بأنه الزواج الأنسب والأفضل لها.

اما شقيقته الثانية مرغريت، فلقد تزوجت من اللورد بريدون، الذي كان يكبرها بشكل ملحوظ، ولم يكن فقط يتمتع بثراء كبير، بل كان عضواً هاماً في مجلس الشيوخ.

اتجهت انظار الجميع اليه وهو يدخل عليهم مفكراً انه بالرغم من انهما اغضبتاه وازعجتاه لبعض الوقت، فهما تتمتعان بجاذبية شديدة تجعله فخوراً كل الفخر بهما.

قبل شقيقته قائلاً: «كيف حالك يا اليزابيت؟» ثم قبل شقيقته الأصغر قبل ان تتمكن اليزابيث من الاجابة، وابتعد عنهما إلى الطاولة التي وضع عليها إبريق الشراب المنعش وبعض الأكواب.

سكب لنفسه كوباً ثم قال مبتسماً: «حسناً، انني مصغ! ما الذي فعلته هذه المرة لأجعلكما تأتيان إلي بمثل هذا الوجه العابس بينما يغلي في قلبيكما كلام تودان في البوح به؟»

ضحكت المركيزة التي كانت تتمتع بروح مرحة اكثر من شقيقتها الصغرى وقالت: «آه يا باك، هذا ما كنت اتوقع ان اسمعه منك! لكن هذه المرة لم نأتِ للتكلم بشأنك، بل بشأن ادموند.»

فسأل الدوق بحدة: «ادموند؟ ما الذي فعله هذه المرة؟»

اجابت السيدة بريدون: «سيصعب عليك ان تصدق ما سنقوله لك.»

جلس الدوق على المقعد المريح الذي يواجه الصوفا التي جلست عليها شقيقتاه وقال: «اذا كان ادموند يعاني من مشاكل مادية، فانا لست مستعداً في ان اسدّد هذه الديون عنه.»

قالت المركيزة: «بل الأمر اسوأ من ذلك.»

فسألها الدوق بدهشة: «تقولين اسوأ من ذلك؟»

لقد كان ابن عمه ادموند الوريث المفترض للقب ومنصب الدوقية، كما انه كان مكروهاً من العائلة كلها، وفي الواقع لا يسر النفس ويعيش عالة على اموال الدوق.

كان أيضاً قاسياً وغير صادق، وقلبه يمتلىء بالحقد والكراهية، ويحط من قدر الدوق في أية فرصة تسنح له، مع انه كان يعيش ويتمتع بحياة لاهية من مساعدات الدوق له.

خيم الصمت للحظات قليلة، قبل ان يقطعه الدوق متسائلاً: «حسناً؟ ما الذي فعله ادموند؟ فلا يمكن ان يكون الأمر اسوأ بكثير من المرات السابقة.»

اجابت مركيزة هال بحدة: «لقد تزوج!»

اخذ الدوق يجول بنظره بين شقيقتيه وبين صهره وكأنه لا يصدق ما قد سمعه.

كرّر الدوق باستغراب ودهشة: «تزوج؟ ومن هي التي قد تتزوج ادموند؟»

اجاب المركيز باختصار: «لوتي لينكلي.»

بدا الدوق وكأن مثل هذا الاسم لا يعني له شيئاً، ثم تبدلت ملامح وجهه وقال مكرراً: «لوتي لينكلي! انك لا تعني...»

قاطعه المركيز مؤكداً: «بل اعني، ان ادموند لم يتزوجها فحسب، بل اعلن بكل وقاحة وجرأة بأنها حامل.»

فقال الدوق: «يصعب علي ان اصدق بأن ما تقوله هي الحقيقة بعينها، لوتي حامل!»

اجاب المركيز: «انني لم اسمع عن اخبارها منذ وقت بعيد، لدرجة انني اعتقدت بأنها اكبر سناً مما هي عليه، لكن

عمرها الحقيقي وذلك حسب قول ادموند، هو واحد وثلاثون.»

شرب الدوق كمية كبيرة من شراب الورد المنعش وكأنه حقاً بحاجة إليه.

تذكر في تلك الاثناء، انه شاهد لوتي لآخر مرة في منزل احد اصدقائه الذي دعاه ليلتها لتناول العشاء عنده، والمفاجأة الكبرى كان، حين دخل الخادم وهو يحمل كعكة كبيرة وضع في وسطها شموع بعدد سنوات صاحب الدعوة. ثم اعلن احد الشخصيات البارزة بان الدوق يملك حق الامتياز باطفاء الشموع مع صديقه، وان يقطعه بعد ذلك بسيفه الحاد.

وبينما كان يفعل ذلك، استرعى انتباهه لوتي التي كانت ترتدي ثوباً امتلأ صدره بالريش، لكنها عندما اخذت تغني، غنت ابشع اغنية سمعها في حياته.

لكن ما لا يمكن ان يصدق، هو ان تصبح اخيراً دوقة باكهرست.

تابع المركيز قائلاً: «لقد قال ادموند، وبما انك قررت ان لا تتزوج وتتجنب طفلاً يحمل لقبك، عزم على ان يتخذ هذا اللقب وان يمنحه لطفله، وقد بدأ هو ولوتي منذ الآن يفكران في جنسية الطفل ولد أو بنت.»

نهض الدوق من مكانه وقال بحدة: «هذا شيء لا يحتمل!»

فقالت شقيقته اليزابيت: «هذا ما كنا ننتظر ان نسمعه منك، وهل تعرف ان هناك من امرٍ واحد يمكنك ان تقوم به؟»

واضافت مارغريت ولم يكن هناك من داعٍ لذلك: «هو ان تتزوج!»

ادرك الدوق الآن انهم كانوا يقصدون اثارة مشاعره في هذا الموضوع، فاتجه إلى النافذة بعيداً عنهم لينظر من خلالها إلى الحديقة الخلفية للمنزل.

لقد زرعت الحديقة بمختلف الازهار والشجيرات بمهارة فائقة وفي كل ارجائها، لكنه لم يكن ينظر إلى كل ذلك، بل إلى اشجار طريق باكهرست.

فخلف تلك الاشجار يقع منزل جده الذي اعاد بناءه وهندسته منذ خمسين سنة مضت، والذي يعود تاريخه إلى اجيال اربعة.

لقد عمل عدد كبير من عائلته كرجال دولة، كما ان عدداً آخر منهم، كانوا جنرالات عظماء مميزين.

لكن وبالرغم من ان الكثيرين من هذه العائلة يعيشون على الهامش مثله، لم يفكر احد منهم ان يتزوج من امرأة مثل لوتي لينكلي، لذلك شعر الدوق بالاشمئزاز والقرف من واحدة مثلها قد تأخذ لقب والدته.

شعر وهو في وقفته إلى النافذة، بأن شقيقتيه تنظران إليه وتنتظران منه جواباً يحل هذه المشكلة، ولم يغب عن باله كم من المرات والمرات التي توسلت فيها شقيقتاه اليزابت ومارغريت اليه تحاولان اقناعه بالزواج لينجب عائلة تحمل من بعده لقب الاجداد.

كان وقتها يضحك ساخراً منهما ويقول لهما هناك متسع من الوقت للتفكير بذلك، لكنه كان في الوقت عينه، يقول بينه وبين نفسه، بأنه يفضل ان يبقى اعزب حتى آخر يوم من حياته.

وكان يسعده كثيراً ان يتحداهما وان يقول امام الجميع

بأن الزواج ليس له وحتى ان المرأة التي قد تلفت انتباهه لم تولد أيضاً. واصبح النكتة المستمرة عندما يأخذ الناس بالحديث عنه بلقب باك العازب! لدرجة انهم فكروا بتأسيس ناد للعازبين يكون هو رئيسه.

الآن فقط، ادرك انه مرح كثيراً مع اصدقائه وفاته القطار بعد ان سبقه ادموند وتزوج.

ثم قال بينه وبين نفسه بانفعال: كان علي ان اتوقع منه ان يقوم بمثل ذلك!

على كل حال، وتابع الدوق يفكر، ان ادموند وحده بامكانه ان يتزوج من واحدة مثل لوتي، فلو استطاع ان يرث لقب العائلة، من المؤكد بأن الناس سيوافقون على لقب دوقة باكهرست الذي ستحمله تلقائياً.

بالرغم من كل ذلك، عرف انه متى اصبح ادموند الدوق، لن يقلقه أي شيء، مطمئناً على ان العقارات والممتلكات التي هي من صالح وريث الدوقية يجب ان تصبح له في النهاية.

كان ادموند رجلاً يحب المادة ويجذبه المال بأية طريقة مهما كانت بشعة، فهو وبالرغم من انه يملك ما يكفيه ليعيش براحة بال وطمأنينة، كان متهوراً ومبذراً وواثق انه لو أدخل السجن بسبب ديونه المتراكمة، بأن الدوق سيخرجه منه ويتكفل بدفع تلك الديون جميعها.

وكان الدوق يدفع ويدفع في كل مرة، لكنه في آخر مرة وذلك منذ شهر تقريباً، قال لادموند بصراحة: «عليك ان تفهم بأن هذه المرة، ستكون المرة الأخيرة التي اسدد فيها ديونك! ولست مستعداً

لإعطائك قرشاً واحداً بعد اليوم لكي تبعثره على الأمور التافهة!»

اجابه ادموند بوقاحة: «هذه الامور التافهة التي تتحدث عنها، تسعدك وتسليك انت الآخر!»

فقال الدوق بحدة: «مهما افعله أو لا افعله، يمكنني ان ادفع تكاليفه من اموالي الخاصة. لكن تذكر، وبما انني رئيساً على هذه العائلة، يجب ان اكون حريصاً على ثروتها بطريقة عادلة تؤمن الحماية لمن هم حقاً بحاجة للمساعدة، لذا، فأنا من اسمح لك بتبديدها باساليبك الأنانية البشعة.»

فقال ادموند: «أحقيقة ما تقوله يا ابن عمي! لا يمكنني ان اصدق ومن بين الناس اجمعين بانك انت من يعظني! هل تعرف ما هي سمعتك في هذا المجتمع، أو ما الذي يقوله الناس من وراء ظهرك؟»

أجاب الدوق بغطرسة: «لا يهمني شيئاً من كل الذي يقولونه، كما ان افعالي الطائشة والمتهورة، ليست مثل افعالك ابداً، لدرجة انها تجعل جيوبك فارغة من قرش واحد.»

فقال ادموند ساخراً: «يا لها من كلمات رنانة! على العموم، اننا لم نبدأ ولن نصل إلى مثل الحياة التي تعيشها.»

ادرك الدوق عندئذ، انه ما من فائدة في الكلام مع ابن عمه. لكنه كرر عليه بأنها ستكون المرة الأخيرة التي يكفله بها، ولو انه وقع في الديون مرة أخرى، لن يفعل شيئاً له وليدخل السجن أو ليبيع احدى ممتلكاته.

اخذ ادموند من الدوق كمية كبيرة من المال ليوفي ديونه، دون ان يوجه له أية كلمة شكر ودون ان يودعه، وخرج كاللص الذي ظفر بالغنيمة دون تعب ولا عناء.

لقد شك الدوق ولبعض الوقت، من ان ارموند كان يأخذ منه المال لاطمئنانه بأنه سيرث لقب الدوقية في وقت من الأوقات. كما ان من يمده بالمال، كان يعلم حق العلم بأن ماله سيعاد إليه طالما ان الدوق جاهز في أي وقت لمساعدته، واكثر من ذلك، اطمئنانهم بأنه سيبقى اعزب وأن لقب الدوقية سينتقل الى ادموند تلقائياً.

لكن اللحظة التي كان الدوق يخشاها قد جاءت الآن، وعرف انه ومن دون ان تنطق شقيقتاه بأية كلمة، بأنه يتوجب عليه القيام بأي شيء حيال هذا الأمر.

ثم فكر بلوتي لينكلي وهي تحتل مركز والدته، وتتزين بجواهر عائلة باكهرست، وتنام في الغرفة التي نامت فيها الدوقيات منذ اجيال، لذا عليه ان يقوم بشيء ليمنع حدوث هذا الأمر.

هذا وعدا عن أي شيء آخر، ستصبح دوقة باكهرست الجديدة وحسب التقاليد الموروثة، السيدة التي يحق لها بالظهور في أية حفلة تدعو اليها الملكة.

طالت وطأة الصمت في الغرفة، فالتفت الدوق قائلاً: «حسناً، لقد انتصرتما عليّ! سأتزوج في الحال!»

هتفت اليزابيت هال بابتهاج واسرعت إلى شقيقها لتقبله على خده، ثم قالت: «تأكدت يا عزيزي بانك ستتصرف بحكمة! أنا اعرف كم انك تكره هذه الفكرة، ولكنني متأكدة بأنك ستجد فتاة جميلة تسعدك وتحمل لقب الدوقة بجدارة.»

ابتعد الدوق عنها بصمت. ثم قال: «لن اجد مثل هذه الفتاة، وبما ان هذه فكرتكما، فلا دور لي فيها.»

سألته مارغريت: «ماذا تعني؟ انني لا افهم.»

اجاب الدوق: «لنكن عمليين، لا يمكنني ان اتذكر فتاة واحدة رضيتما عنها أو جعلتكما تعتقدان بأنها الفتاة المناسبة لتحمل لقب الدوقة، لذا فليس هناك امامي متسع من الوقت لافتش عليها.»

فسألته مارغريت: «اذاً، كيف ستتمكن من الزواج؟»

أجاب الدوق: «هذا شغلك وحدك، لقد الح كل من في العائلة علي بالزواج وخاصة انت منذ خمس سنوات، أو ربما عشر سنوات؟ حسناً فتشا لي على واحدة!»

بدأت مارغريت تقول: «لكن كيف...»

فقاطعتها شقيقتها تسأل: «هل حقاً ما تعنيه، بانك تتوقع منا ان نختار لك المرأة التي ستتزوجها؟»

«نعم، والا سيمنح ادموند لقب دوقة باكهرست إلى لوتي، ومن دون شك سيستمتع بركوب جيادي الاصيلة في نيوماركت.»

صرخت اليزابيت بخوف ثم قالت: «لا، لا! لن نسمح بحدوث ذلك! وبالطبع سنساعدك يا عزيزي بكل ما أوتينا من قوة.»

فقال الدوق بلهجة صارمة: «المسألة ليست مسألة مساعدة فقط، لقد سبق وقلتما لي انه يجب على ان اتزوج، واعتقد انه لا خيار لي سوى ذلك في مثل هذه الظروف. لكن لن اتدخل، وعليكما ان تجدا لي دوقة المستقبل، عندها سأتزوج منها لاحافظ على لقب والدتي

وجدتي، لكنني سأستمر بالعيش وبالطريقة التي تحلو لي.»

صرخت اليزابيت بفزع وقالت: «آه يا باك، لا يمكنك ان تفعل ذلك!»

أجاب الدوق: «انني اعني حقاً ما اقوله، انك تعلمين كما انا اعلم، بأن فكرة الزواج تروعني وتشعرني بالملل والضجر المميتين.»

قالت اليزابيت: «قد لا تكون...»

قاطعها الدوق ضاحكاً بطريقة مريرة وقال: «يا عزيزتي اليزابيت، انظري حواليك، فكم برأيك من اصدقائنا سعداء في حياتهم الزوجية؟»

وفكر قليلاً قبل ان يتابع: «لكنني اصر على شيء واحد، وهو ان تكون الفتاة التي سأتزوج منها مازالت صغيرة هادئة وخجولة.»

اجابت مارغريت: «بالطبع، فلا من داع لقول ذلك!»

ابتسم الدوق بسخرية لأنه يعرف حق المعرفة، بأنه من الصعب ان يجدوا فتاة بمثل هذه الصفات وبهذه السهولة.

فتابعت اليزابيت تقول وكأنها تريد ان تتأكد من صحة كلامه: «هل تعني حقاً، بأنني ومارغريت وبمساعدة ارثر بالطبع، علينا ان نجد لك الزوجة المناسبة والتي لا تليق بحمل لقب العائلة فحسب، بل ان تكون في الوقت نفسه خجولة وبريئة؟»

أجاب الدوق: «الجواب على كل ذلك، هو بالتأكيد نعم! لأنني لا اريد ان اقلق بشأنها، واقترح بما اننا اليوم في الثاني من شهر أيار ـ مايو ـ ان تستعدوا للقيام بحفلة

الزفاف في الثاني من شهر حزيران ـ يونيو ـ فهذا سيفسح لي المجال في ان انقل جيادي الى اسكوت، واتوقع بأنني سأفوز هذا العام بالكأس الذهبي.»

خيم هدوء وكأنما الدهشة عقدت ألسنتهم، ولكن المركيز قطع الصمت ليقول: «الا تعتقد انك تعطي الأمور اكثر من حجمها؟»

أجاب الدوق: «ابداً، هذا إذا كنا حقاً نريد ان نمنع الفرص عن ادموند ليستدين اكثر من ذلك وعن لوتي من ان تتمتع بلقب الدوقة في المستقبل القريب.»

كان عندها ينظر إلى المركيز عندما تكلم، وهذا الأخير، كرجل، كان يعرف الطريقة التي يتوجب على لوتي أن تتصرف بها كزوجة لادموند.

لقد عرفت دائماً بتصرفاتها اللااخلاقية في المدينة بأسرها.

لذا، وبما انها تستطيع الزواج من أي كان، تعتبر امرأة محظوظة جداً، فكيف اذا تزوجت من رجل قد يرث لقب دوقية باكهرست؟ انها ستستغل هذا المركز لتجعل من نفسها امرأة سيئة السمعة اكثر مما هي عليه.

فقال المركيز: «انك على حق، اذا اردت ان تتزوج، فمن الافضل ان تسرع بتنفيذ ذلك قدر ما تستطيع! كما انني متأكد من ان اليزابيت ومارغريت ستعثران على احداهن بابسط الوسائل الممكنة.»

فقالت اليزابيت: «انني متأكدة من انك على حق يا عزيزي، ولكنني في الحقيقة، لم اتمنى لك الزواج بهذه الطريقة.»

www.rewayti.net

تنهدت بحزن ثم تابعت تقول: «انك وسيم وموهوب جداً، فبالرغم من الثرثرات التي يقولونها عنك، والتي تعلم بأنها ناتجة عن عدم ادراكك، فانك مازلت ذلك الرجل النبيل الذي اعتز وافتخر به.»

اسرعت تضيف مارغريت: «وانا أيضاً.»

فقال الدوق بنبرة ليست ساخرة فقط بل فيها الكثير من المرارة: «آمل ان تكون زوجتي فخورة بي أيضاً، لكن الذي اخشاه، انني ومتى تزوجت من أية امرأة، ان لا تتفق معكما.»

تقدمت اليزابيت منه ثم قالت بصوت منخفض: «لقد تمنيت كثيراً يا باك، لتجد امرأة تحبك وتحبها، وربما لو حالفنا الحظ، ساجد ومارغريت تلك الزوجة المناسبة التي يحلم بها كل رجل.»

ضحك الدوق وقال: «انك رومانسية يا اليزابيت، فهذا امر لا يتم سوى في القصص العاطفية! أؤكد لك بانني سعيد جداً في حياتي كما هي، ولكن وبالرغم من ان الزوجة قد تعيق وقد تحصي علي خطواتي، وهذا أمر ما من شك فيه، سأعاملها بكل احترام وسأقدم كل ما يفرضه الواجب تجاهها، وكل ما اطلبه منها ان لا تتدخل بخصوصياتي.»

لاحظت شقيقته الخشونة والحدة في صوته فقالت بألم: «لطالما كنت صبياً محبوباً وكنا قد احببناك كثيراً، لكن الذي تغير، انك اصبحت تسخر من كل شيء جميل.»

أجاب الدوق: «لقد كبرت سناً وازدادت حكمتي. لكن لا اريدك ان تقلقي بشأني يا اليزابيت، لأنني سعيد جداً بما انا

عليه، إنما تأثرت وانفعلت لأن اموند دفعني للقيام بخطوة تجنبتها وتحاشيتها منذ زمن طويل.»

فقالت اليزابيت: «انني متأكدة من انك وعندما تجتاز هذه الخطوة، ستجدها ليست سيئة كما كنت تعتقد.»

أجاب الدوق: «آمل ذلك، لكنني اتوقع الأسوأ.»

فسألته مارغريت التي كانت تريد دائماً ان تفسر لها الأمور لا ان تقال بطريقة مبهمة: «ما الذي تقوله؟»

أجابها شقيقها: «انني سأضطر لرؤية نفس الوجه كل يوم وسنة تلو الأخرى، وان اسمع نفس الكلام والملاحظات الساخرة والتي قد اكون سمعتها بالأمس أو قبل ذلك بكثير!»

توقف قليلاً يفكر بالذي سيضيفه ثم قال: «ان السعادة الوحيدة من هذا كله، هو ان يكون لي صبياً يمكنني ان اعلمه ركوب الخيل والصيد، والذي سيأخذ مركزي في يوم من الأيام كرئيس للعائلة كلها.»

فسألته مارغريت: «لكن لنفترض بانك انجبت بناتاً فقط؟»

أجاب الدوق: «عندها ومما لا شك فيه، سأغرقهن جميعاً.» قال ذلك وانتظر ان يسمع صرخة الاحتجاج من شقيقتيه.

انه فقط وعندما توفي والديه واصبح وحيداً، سأل نفسه بيأس وقنوط عن الذي بقي له في هذه الدنيا.

فبعد كل تلك السنوات التي مرت عليه وهو يكره فكرة الزواج الذي يعتبره نهاية لحريته وخصوصياته، وجد نفسه يقف عاجزاً عن الاستمرار في ذلك بسبب ابن عمه الذي يشمئز منه ويحقته.

فقال بينه وبين نفسه: انه يثأر مني! وكان متأكداً من ان

لو ألموند يعرف الآن بما يشعر به، سيفرح ويسخر منه كثيراً.

عندها، وكأنما لم يعد يتحمل التفكير أكثر بالمستقبل والذي ينتظره منه، طلب أن تجهز العربة له، واتجه بها في اتجاه غابة سانت جون، حيث استأجر لنفسه فيها منزلاً.

عاد الدوق إلى منزله الأساسي بعد بضعة ساعات، لكن الهواجس المقلقة لم تفارق رأسه، وسأل نفسه: «ماذا هناك أيضاً؟»

لكنه قرر قراراً مفاجئاً وسريعاً لا يعرفه سوى الذين على معرفة وثيقة به.

فقال لخادمه الخاص: «ارسل وراء السيد دلتون.»

«حاضر سيدي.»

خرج الخادم الخاص بسرعة، بينما وقف الدوق يتأمل نفسه في المرآة، فلاحظ أن الخطوط في وجهه زادت عن السنة الماضية والسنوات التي قبلها.

فقال لنفسه: انني اكبر اكثر فاكثر كل عام، فربما ان العائلة على حق، ولقد آن الأوان كي أستقر.

ثم اخذ يفكر بتلك الفتاة الجاهلة الغبية التي قد يتزوجها، والتي قد تكون في الوقت نفسه من عائلة نبيلة يحمل والدها لقباً مماثلاً للقب الذي يحمله هو.

ستكون زوجته وستتوقع منه ان يقوم بواجباته لها. ثم ستنجب له الابناء الذين يستحقون هذا اللقب من بعده.

لكنها ستبقى معه في منزله وفي حياته، ومن دون شك فيه، سيقل كلامها معه عما كان في بداية زواجهما.

تابع ينظر إلى نفسه في المرآة قائلاً: «لا يمكنني ان احتمل كل ذلك! لا يمكنني ان اقدم على مثل هذه الخطوة.»

فتراءى له في المرآة وجه لوتي وابن عمه، فأدرك، ان لا خيار له غير ذلك. اذاً، عليه ان يسرع بإتمام هذا الزواج كي يسد عليهما الطريق لمؤامرتهما الدنيئة.

فتح الباب في تلك الاثناء ليدخل منه السيد دلتون.

لقد كان السكرتير الخاص والمحاسب العام على نفقات الدوق منذ سنوات عديدة، ويعتبره ماهراً وبارعاً في ادارة شؤونه واعماله الكثيرة.

التفت الدوق ناحيته قائلاً: «ابعث برسالة يا دلتون للبارونة فون شلتر، بانني ومن سوء الحظ، ساضطر إلى عدم تلبية دعوتها لهذه الليلة، ذلك لأن الملك طلب حضوري إلى قصر باكينغهام.»

أجابه السيد دلتون: «حسناً يا سيدي.»

«ارسل لها غداً سلة من الزهور كما هي العادة.»

«حسناً يا سيدي.»

واضاف الدوق: «ساغادر صباح الغد إلى نيوماركت، وبما انني سأبقى هناك اكثر من المرات السابقة، اعتقد انه من الأفضل ان تذهب معي.»

«بالطبع يا سيدي.»

تنهد الدوق وقال: «والآن يا دلتون، إلى أين تنصحني بالذهاب؟ فأنا لن احتمل المكوث هنا افكر بنفسي.»

«طبعاً لا يا سيدي.»

«انني اسألك عن المكان الذي يمكنني ان اجد فيه بعض اللهو والمرح اللذين قد ينسياني ما في نفسي.»

تكلم الدوق بحدة وقسوة، فأدرك سكرتيره ان عليه ان لا يسأل اسئلة غير ضرورية.

فأجابه: «اقترح عليك يا سيدي ان تذهب أولاً إلى وايت حيث ستجد بعضاً من اصدقائك هناك، فأنا متأكد من انهم سيقترحون عليك اماكن عديدة يمكنك ان تجد فيها اللهو والمرح.»

فقال الدوق: «انك على حق يا دلتون، وهذا ما سأفعله حقاً، لأنني لو ذهبت إلى أي مكان آخر ربما لن أجد ما اصبو إليه.»

لم ينطق السيد دلتون بأية كلمة، فقال الدوق بحدة وكأنه كان يعرف بالذي يفكر به: «سأتزوج يا دلتون! هل يدهشك ذلك؟ ولكنها الحقيقة!»

«لقد فكرت بأن ذلك قد يحدث يا سيدي، بعد ان علمنا بزواج السيد ادمونت.»

نظر الدوق مطولاً إلى سكرتيره ثم استغرق بالضحك، وقال بعد ذلك: «حقاً يا دلتون! هل هناك من شيء لا تعرفه؟ لقد كنت اتوقع هذه المرة ان اكون على معرفة بشيء قبلك أنت.»

قال السيد دلتون بهدوء: «لقد نشر خبر زواج السيد ادموند في الصحيفة الرسمية هذا اليوم، ولقد كنت عازماً على ان أريك هذا الاعلان، عند عودتك، لكنني توقفت عن ذلك مدركاً ان السبب من وراء زيارة العائلة لك، هو لاطلاعك على هذا الأمر.»

وافقه الدوق قائلاً: «انك على حق يا دلتون، وقد قررت بعد ان أوضحا لي الأمر، ان لا خيار لي سوى الزواج.»

فقال السيد دلتون بهدوء: «ما آمله يا سيدي، هو ان تجد الزوجة التي قد تمنحك السعادة.»

أجاب الدوق: «انها ستجعلني يائساً وتعيساً. ولا احد يعرف ذلك اكثر مما تعرفه انت! ولا تتجرأ في ان تقدم لي تمنياتك الطيبة!»

لم ينتظر الدوق جواباً من سكرتيره، وخرج من الغرفة محاولاً قصارى جهده ان لا يفقد السيطرة على نفسه ويحطم كل شيء في طريقه.

الفصل الثاني

امتطت الآنسة سمالا وين جوادها متجهة إلى الاسطبل بكل براعة واتقان متجنبة الحفر العديدة فوق الطريق.

نزلت عن صهوة الجواد وأمسكت برسنه لتدخله إلى الاسطبل الذي كان في الاساس يحتوي على أربعين جواداً لكنه الآن لا يحتوي سوى على ثلاثة فقط.

إن الحجيرة الأولى للاسطبل يرشح سقفها بفعل الأمطار، لذا أدخلت جوادها مركوري إلى الحجيرة الثانية التي على الأقل ما يزال سقفها حتى الآن محصناً ضدّ الأمطار.

وبينما كانت تنزل السرج عن الجواد، جاءها سائس يعمل منذ زمن طويل عندها ليقول: «هل استمتعت بنزهتك يا آنستي؟»

«نعم، وشكراً لك يا والترز، لكن كثرة الأعشاب تضر بصحة مركوري، وأعتقد أنه من الأفضل أن تطعمه الشوفان هذه الليلة.»

«هذا مستحيل يا سيدتي.»

«لماذا؟»

«إن السيد تيرنر لن يمدنا به بعد اليوم، إلا متى سددنا له الحساب الماضي.»

تأوهت سمالا لكنها لم تحتج، لأنها كانت تعرف بأن ذلك قد يحدث في يوم من الأيام.

ثم قالت: «حسناً، أطعمه الكثير من التبن... آه، لكنني أعرف كما تعرف بأن ذلك لن يجدي.»

«لا يا سيدتي، كما أننا ليس بوسعنا أن نفعل شيئاً حيال ذلك.»

وافقته سمالا: «أجل، ولا شيء.»

علّق والترز اللجام في الحجيرة، ثم حمل السرج القديم ليعلقه في الخارج على الحائط.

سطعت أشعة شمس الربيع على شعرها من خلال الزجاج المحطّم لنوافذ الاسطبل، فحوّلته إلى خيوط ذهبية مشعة، لكن عينيها الزرقاوين كانتا قلقتان وهي تبتعد عن الاسطبل بحذر من الحفر الكثيرة التي تملأ الطريق الذي يؤدي إلى المنزل.

وفكرت كم ان الحياة أصبحت قاسية، وتساءلت إذا ما زال هناك أي شيء في منزلها لتعرضه للبيع.

كانت ووالدها في بعض الأحيان ينامان وهما يشعران بالجوع القاتل، لكنها وبالرغم من ذلك، كانت لا تحتمل أن ترى الجياد تعاني من الجوع المستمر. وعادت تتساءل بيأس كما تساءلت كثيراً في الماضي، كيف ستتمكن هي ووالدها من إعادة المال الذي استدانوه.

فأي شخص ينظر إلى ذلك المنزل الرائع والتاريخي، لن يخطر بباله ان من في داخله يعاني من الجوع والفقر الشديدين لكن ما بداخله عكس ما يظهره خارجه، فسمالا تعتقد أحياناً بأن كل ما فيه سينهار يوماً فوق رؤوسهم.

وكانت تعلم أنها لا يمكنها أن تقترح على والدها ببيعه

وأن ينتقلوا إلى أي منزل صغير أو حتى إلى أي كوخ، ذلك لأنه كان يعني الكثير له ولا يمكنه أن يتخلى عنه بهذه البساطة.

لقد قال لها مرة، ولا يمكنها أن تنسى ذلك مهما عاشت: «إذا كان عليّ أن أغرق، فسأغرق مع سفينتي! ولن أستسلم لأي رجل ولا لهذه الديون المتراكمة!»

إن الكرامة وحدها هي التي دعته ليقول مثل هذا الكلام، ولقد ورثتها سمالا عنه وقررت بأنها ستكافح وتتابع المكافحة حتى آخر يوم من عمرها.

انهما قد يموتان من الجوع الشديد وقد تُترك جثتيهما دون أن يدفنا في حديقة المنزل الذي يعود تاريخه إلى عهد الملكة اليزابيث.

لكنها، وبما أنها ما زالت شابة تضج حيوية، قالت لنفسها بأن الأمور لن تسوء أكثر مما ساءت وبطريقة ما لا تعرفها بعد، سينجوان بأنفسهما من هذه الضائقة.

وعندما اقتربت من المدخل الرئيسي للمنزل، دهشت لوجود عربة فخمة بأربعة جياد تقف أمامه، وقد جلس السائس والخادم في مقعد القيادة.

وتساءلت من قد يكون ذلك الزائر الذي جاء لزيارة والدها، وتمنّت لو أن يكون واحداً من الجيران الذين يسكنون على مقربة منه، وقد جاء ليعرض على والدها إحدى المهام التي سيجني من ورائها الربح الوفير.

وبما أن والدها كان رجلاً محبوباً ومحترماً من الجميع، أخذ يتردد ويتقرّب دائماً من الشخصيات الكبيرة على أمل أن يحظى بوظيفة أو بأخرى.

كان يعلم أيضاً أن مثل هذه الوظائف والمراكز الهامة ستضطره أحياناً للتبرع والمساعدة، أو بالاستشفاء للمحتاجين وهو أولى من غيره بهذه الأمور.

عندما اقتربت سمالا من العربة، أخذت تبحث بنظرها على أية علاقة تشير إلى هوية صاحبها، مفكرة أنها لو كانت مألوفة لديها، فستعرف صاحبها في الحال.

لكن العلامة التي وجدتها على دعامة العربة، كانت مجهولة لديها، فصعدت الدرجات بسرعة، وفكرت بأنه عليها مساندة ومساعدة والدها ليرفض أي شيء قد يقترح عليه دون أن يكشف عن السبب الحقيقي من وراء ذلك.

تساءلت وهي تمشي في ردهة المنزل إذا كانت تبدو غير مرتبة في ثياب ركوب الخيل هذه والتي باتت مهترئة وقديمة، وأدركت أنه لو كان الزوار على جانب من الأهمية، سيعتقدون أنه لمن الغرابة أن لا تكون تعتمر قبعة على رأسها.

لم تملك قبعة بعد تلك الأخيرة التي لم تعد صالحة، لكنها شعرت أنه من المريح لها أكثر، أن ترفع شعرها وتربطه على شكل كعكة دون أن تكترث إلى التقاليد الموروثة.

ثم قالت بينها وبين نفسها مبتسمة، إنه من المستبعد أن يلاحظ أي كان كيف يبدو مظهرها، فالأهم الآن أن تكون إلى جانب والدها الذي دون شك يحتاج إليها.

فتحت باب غرفة المكتبة التي يستعملانها دائماً، لأن الصالات الأخرى كانت قد أقفلت نهائياً بعد أن أفرغت من

محتوياتها، كما أن المكتبة كانت واسعة وباردة كثيراً في الشتاء والربيع، عدا طبعاً في أيام الصيف الحارة.

لقد جعلت سمالا غرفة المكتبة مريحة على قدر الامكان، وأبقت على الأثاث الذي كانت ووالدها تفضلانه على غيره، حتى أنها أبقت اللوحات الزيتية التي لا يرغبان ببيعها.

دخلت الغرفة وهي تتوقع أن ترى رجلاً نبيلاً يجلس على أحد المقاعد الجلدية المريحة والبالية. لكنها وجدت سيدة بغاية الأناقة والجمال.

حاولت جهدها أن لا تبدو عليها الدهشة والتفت والدها ناحيتها بارتياح لعودتها، ولكنها أدركت من نظراته بأن هناك شيئاً يقلقه.

تقدمت سمالا إلى المدفأة قائلة: «أسفة لتأخري يا والدي، لكن اليوم كان رائعاً، وتمنيت لو أنك رافقتني في هذه النزهة.»

أجاب الإيرل بثقل نوعاً ما: «يا ليتني فعلت ذلك.»

ثم نظر إلى السيدة التي تجلس أمامه وقال: «أقدّم لك ابنتي سمالا.» ثم التفت إلى سمالا متابعاً: سمالا، هذه مركيزة هال، لقد جاءت إليّ بطلب غريب، لكنني أريد منك أن تسمعيه.»

أجابت سمالا: «نعم بالطبع يا والدي.» ثم تقدمت من المركيزة وانحنت أمامها بأدب وهي تمدّ يدها للمصافحة.

تهيّأ لسمالا بأن المركيزة تنظر إليها بإمعان وتدقيق، وبطريقة محرجة تماماً، وكأنها تقارن بين أناقتها

الكاملة التي تماشي الموضة الحديثة، وبين ما ترتديه هي بالذات.

ولدهشة سمالا، قالت المركيزة: «إنك فتاة لطيفة، بل أبعد بكثير مما تصورته.»

إنه قول غريب لأن يقال، ونظرت سمالا إليها بدهشة وتساؤل، ثم تحولت إلى والدها، وبما أنها تفهمه جيداً، أدركت بأنه يشعر بالحرج.

لكنه قام من مكانه ليقف مديراً ظهره للمدفأة، وبدأ يقول وقد بدا عليه التفكير في انتقاء الكلمات المناسبة: «إن المركيزة يا سمالا، جاءت لزيارتنا من قبل شقيقها الذي يريد أن يتقدم في طلب يدك.»

شعرت سمالا في تلك الاثناء، لو أن والدها أسقط صخرة على قدميها، لما كانت دهشتها كما هي الآن.

اعتقدت للوهلة الأولى، ربما تكون مزحة، وفي الوقت نفسه اعتقدت أيضاً، لا بدّ وأن والدها جاد في كلامه.

فتمكنت بعد جهد أن تقول: «إنها مفاجأة... يا والدي»

أجاب الايرل: «عرفت بأنك ستظنين ذلك، انه الزواج الذي كنت اتمناه لك، والذي يشرفني كثيراً.»

«هل قابلت الرجل الذي يطلبني للزواج يا أبي؟» سألته سمالا ذلك، وكأنها تريد أن تعرف فيما لو قابلته هي شخصياً من قبل.

نفى الايرل بحركة من رأسه قائلاً: «لا، لا أعتقد بأنني قابلته قبلاً، لكنني قد أكون جاهلاً كل الجهل لو لم أكن أعرف بأن جياده هي التي تفوز دائماً في ميادين سباق الخيل.»

فقالت المركيزة: «بالطبع، فشقيقي رجل رياضي عظيم وخيّال كبير، وبما أن ابنتك تهوي ركوب الخيل، فهذا يدل على أن هناك قاسم مشترك بينهما.»

تكلمت بحماس، فاعتقدت سمالا، أنها تريد بذلك أن تقنعها، ثم تابعت: «في الواقع، انه من العدل أن يقال، بأن جياد شقيقي ليست فقط تلك التي تشارك في السباق، بل أيضاً تلك التي يستعملها للركوب في النزهات، إنها رائعة وأؤكد لك ايتها الآنسة سمالا، بأنها ستأسرك كما تأسرني دائماً.»

فكرت سمالا بأن ما تسمعه غريب جداً، في الوقت الذي عليها أن تسمع أكثر عن الرجل الذي سيتقدم للزواج منها.

فسألت بصوت ضعيف لا يدل أبداً على أنه صوتها الحقيقي: «هل ستسنح لي الفرصة في أن ألتقي هذا الرجل النبيل الذي يريد الزواج مني؟ وعند ذلك يمكننا أن نتكلم في الأمور الأخرى المشتركة.»

بدت المركيزة مترددة، فتدخل الايرل قائلاً: «لقد أوضحت لي المركيزة يا سمالا، انه من الضرورة، مع أنني لا أفهم السبب لذلك، بأن يتمّ زواجكما في الثاني من شهر حزيران – يونيو.»

«لكن يا والدي... هذا يعني بعد أقل من ثلاثة أسابيع.»

فقال الايرل: «نعم، أعرف. كما وأنه يبدو لي في الأمر غرابة كبيرة.»

تدخلت المركيزة لتقول: «لقد سبق وقلت إن شقيقي يريد أن يتزوج قبل السباق الملكي السنوي، وسيشترك بهذا

السباق العديد من جياده ويأمل أن يفوز هذه السنة بالكأس الذهبي.»

قال الايرل بهدوء: «كان عليّ أن أدرك أن في زواج الدوق في تلك الوقت، يريد أن ينال الأفضلية في كل شيء.»

تنقلت سمالا بنظراتها بين والدها وبين المركيزة بدهشة ما بعدها دهشة، ثم قالت هذه الأخيرة: «أرجوك يا عزيزتي، أو هل تسمحين لي بأن أناديك بسمالا؟ حاولي أن تفهمي بأن شقيقي رجل لا يمكن التكهن بتصرفاته، ورغم ذلك أحبه كثيراً وأجده يتمتع بشخصية رائعة، وقد قرّر أن يتزوج في الثاني من شهر حزيران – يونيو –، فأرجوك أن توافقي على طلبه.»

تخيّل للمركيزة بأن سمالا تشك في كل ذلك، فتابعت تقول: «من المؤكد أنك تعرفين ما قد يعني لك كل ذلك، إذ أنك ستصبحين السيدة على قصر من أهم القصور في بريطانيا، هذا بالإضافة إلى العديد من المنازل التي يملكها شقيقي، كما أنك ستحصلين على الثياب الفاخرة التي ستجعلك أجمل امرأة تظهر في الحفلات، وعلى الجواهر المتنوعة التي لا مثيل لها في البلاد كلها.»

توقفت المركيزة ونظرت حواليها وإلى السجادة الرثة والستائر المهترئة وإلى الأثاث الذي يحتاج إلى تجديد، ثم تابعت: «حتماً، ستفهمين كم أن ذلك سيغيّر من حياتك.»

أجابت سمالا: «لا أفهم ما الذي تحاولين قوله لي، لكن وقبل أن أقرّر، أريد أن أقابل... الرجل الذي... سأتزوج منه والذي قد أجعله سعيداً.»

بدا التفكير على المركيزة قبل أن تقول: «هذا ما كنت اشرحه لوالدك قبل مجيئك، ولسوء الحظ شقيقي اضطر للسفر، ولن يعود إلا قبل الزواج بيوم واحد.»

نظرت سمالا إليها بذهول قائلة: «هل حقاً تطلبين مني أن أتزوج من رجل لم أره ولم أتكلم معه؟ ذلك من الصعب جداً.»

مشت بعد أن انتهت من كلامها ووقفت إلى جانب والدها وأحاطته بذراعيها كأنها تحمي نفسها به من خطر أحاط بها.

فوضع والدها يده فوق يدها وكأنه فهم ما كانت تشعر به.

ثم قال: «أوافق معك بأنه طلب غريب جداً يا سمالا، لكن في الوقت نفسه وكما قالت المركيزة، أنك ستصبحين دوقه باكهرست، وهذا مركز هام تحسدين عليه.»

تصلّبت أعضاء سمالا عندما سمعت ما قاله والدها وقالت: «هل قلت... دوقة باكهرست... يا والدي؟»

تدخلت هنا المركيز قائلة: «اعتقدت أنني شرحت هذا الأمر، كما وأن شقيقي كان قد أصبح، دوق باكهرست قبل أن تولدي أنت بالذات.»

فتساءلت سمالا: «هل أنت متأكدة؟»

ابتسمت المركيزة ثم قالت: «بالطبع إنني متأكدة من ذلك! فلو أنك سمعت عن أخباره، لكن بالطبع لا بدّ وأنك سمعت عنه، تعلمين بانني لم أبالغ عندما أخبرتك بالمنصب الذي يحتله في ميادين الخيل، هذا بالإضافة إلى أهميته كصديق حميم للملك، كما وانه أحد أهم دوق في بريطانيا.»

فقالت سمالا وكأنها لم تكن تصغي لكلامها: «دوق باكهرست!»

ثم نظرت إلى والدها قائلة: «بالرغم مما قلته يا والدي بأنه طلب غريب، فأنا مستعدة، إذا كان حقاً يرغب بالزواج مني... أن أقبل بالدوق!»

وقبل أن يتمكن والدها من التفوّه بأية كلمة، ظهر على وجه المركيزة علائم الابتهاج والفرح، ثم قالت: إنني سعيدة جداً لقولك هذا. يا لك من فتاة حساسة! وإنني أعرف كم سيكون شقيقي سعيداً عندما أكتب إليه بأنك وافقت على طلبه.»

وكأنما أراد والدها أن يثبت وجوده، قال: «يجب أن تتزوج ابنتي هنا، في منزل والدها.»

تنهّدت المركيزة وقالت: «أعتقد يا سيدي، أن في ذلك خطأ كبير! ويمكنك أن تدرك إذا قلت لك بأن المستأجرين في مقاطعة باكهرست سيشعرون بخيبة الأمل إذا لم يشاركوا بمثل هذه المناسبة. فزوجي قد بدأ منذ الآن بنصب فسطاط سيحتوي على العصير المنعش والمأكولات المتنوعة المذاق والتي تجعلني أشعر بالغثيان كلما فكرت بها!»

وابتسمت قبل أن تتابع: «إن ضيوفنا سوف يكرمون كثيراً في قاعة الحفلات، كما أننا سنعد قالباً كبيراً من الحلوى سيصنعه كبير الطهاة لدينا والذي قد يتحطم قلبه لو أنه أعدّ بواسطة طاهٍ آخر.»

ضغطت سمالا على يد والدها، فأدرك أنها تقصد من ذلك، أنه حتى سيصعب عليهم تقديم قالب صغير وبسيط

من الحلوى في هذه الظروف القاسية التي يمران فيها.

كما أنه سيستحيل عليه أن يقدم أية ماكولات أو مشروبات منعشة لضيوفه في مثل هذه المناسبة السعيدة.

فقال الايرل عند ذلك: «حسناً، يجب أن أوافق على طلبك، ولحسن الحظ، إننا لا نبعد كثيراً عن مقاطعة باكهرست، حتى أنه يمكنني وسمالا أن نقطع المسافة التي تفصلنا عنها بمدة ساعتين ونصف.»

ضحكت المركيزة وقالت: «هذا يتوقف على الجياد التي تملكها! فلقد تمكنت أن أصل إلى هنا بمدة ساعة ونصف فقط، كما وانني متأكدة أنه في يوم الزفاف، سيرسل شقيقي لكما عربة تجرها أجود الجياد التي عنده، لدرجة أنكما ستشعران بأنكما تطيران فوق السحاب وليس فوق الطرقات الوعرة.»

توقفت قليلاً لتلتقط أنفاسها، ثم تابعت: «هناك أمر واحد قد أصرّ عليه، وهو أنني سأقدّم لك يا عزيزتي في يوم زفافك جهازك الكامل. وأخشى أن أقول لك، بأن فساتينك لن تكون جاهزة إلا بعد انتهاء الزفاف. ولكن بإمكاني أن أعدك أنه سيتوفر لك بعضاً منها لتبدأي بها شهر العسل.»

«شكراً جزيلاً لك.»

شعرت سمالا بأن والدها قد انزعج من كلماتها الأخيرة واعتبرها إهانة له لأنه لا يستطيع أن يقدم الجهاز لابنته الوحيدة.

لكنها تعرف كما يعرف هو، بأنهما لا يملكان مالاً لشراء ثوب واحد، فكيف بالجهاز الكامل؟

وتابعت المركيزة: «والآن، لنكن عمليين، فلو أعطيتني مقاسك، أو ربما من الأفضل أحد فساتينك القديمة لأرسلة على الفور إلى السيدة برتين التي تشتهر بأفضل من خاط الثياب في شارع بوند، وستجهز لك نصف دزينة منها بأسرع ما يمكن. ثم ستأتي اليك ومعها تصاميم مختلفة لتختاري منها كل ما يعجبك.»

«هذا كرم شديد منك يا سيدتي.»

أجابت المركيزة: «أريد أن أكون كريمة جداً مع الفتاة التي ستتزوج من شقيقي، ولا تتصوري كم أنني سعيدة لأنه سيظفر بفتاة في حسنك وجمالك والتي تنتمي إلى سلالة نبيلة كعائلتنا.»

وقفت بعد ذلك ومدت يدها للايرل مصافحة وقالت: «شكراً لك يا سيدتي، إننا طبعاً سنرى بعضنا كثيراً في المستقبل القريب، وزوجي الذي يقول أنه قابلك قبل الآن، ينتظرك بشوق كبير في منزلنا في لندن، كما أنه يأمل بأن تمكث معنا في الريف.»

أجابها الايرل بأدب: «شكراً لك.»

التفتت المركيزة إلى سمالا وقالت: «إلى اللقاء يا عزيزتي، أعرف بأنك لن تندمي على قبولك كي تكوني زوجة لشقيقي، وتذكري بأن كل ما أريده، هو مساعدتك. كما أن شقيقتي السيدة بريدون ستقول لك نفس الشيء. إننا نحب بأن رجونا كثيراً لكي يحصل على السعادة والاستقرار، وأنا أكيدة بأنك ستؤمنينها له.»

لاحظت سمالا أن هناك نبرة غريبة في صوتها، وكأنها تأمل بسرعة أن يتحقق للدوق ذلك.

وافقها زوجها على الفور: «إنه حقاً رجل نبيل، وكبرياؤه رفيع، لذا أشك أن يوافق على طلب هذا الزواج في الثاني من شهر حزيران ـ يونيو.»

فسألته مارغريت ببساطة: «لماذا يعقّد باك الأمور دائماً؟»

أجابت اليزابيت: «لأنه دائماً يعمل على هواه، لكنه لن يدرك أبداً لماذا ولا عائلة لم توافق على تقربه منها.»

ذعرت مارغريت وقالت: «إذا سمعك باك تقولين ذلك سيصاب بالشلل!»

أجابتها شقيقتها: «ولكنها الحقيقة، وبصراحة، إذا رفض الايرل هذا الطلب، سيكون الأمل الأخير الذي نخسره. وربما سنضطر أن نبدأ بالبحث من جديد وقد يفوتنا عند ذلك موعد الزفاف.»

فقالت مارغريت بحدة: «حسناً، قولي لباك إنني لن أحاول من جديد.»

أيدها المركيز قائلاً: «ولا أنا أيضاً.»

تنهدت اليزابيت ثم قالت: «الذي آمله، بما أن ايرل كنوين فقير ومعدم، سيدرك أن الفرصة الذهبية قد أتت له ولابنته.»

وابتسمت لتتابع: «فلو كان هناك شيء نتفق عليه جميعنا، أنه بالرغم من أخطاء باك، فهو يعتبر رجل كريم، ولن يرضى مع أنه يكره الزواج، بأن يبقى عمه في مثل هذا الفقر المدقع.»

فقالت مارغريت: «إذاً، حاولي أن توضحي كل ذلك للايرل.»

لكن المركيزة نجحت حقاً في اقناع الايرل وابنته بصورة غير مباشرة وانتهت من هذه المشكلة الصعبة. إنما الذي كانت تخشاه، هو أن تغيّر سمالا رأيها في اللحظة الأخيرة.

وقالت لنفسها: «إنه والحق يقال، طلب سخيف!» وهذا ما كانت تقوله دائماً منذ أن فرض باك شروطه لهذا الزواج.

* * *

عاد الايرل إلى غرفة المكتب وقد عزم على أن يسأل سمالا عن سبب موافقتها على دوق باكهرست دون أن تفكر بالأمر أكثر.

فقال لنفسه: «أريدها أن تكون سعيدة.» لكنه كان يعلم أنه متى رحلت عنه سيشعر بالوحدة والفراغ بعد أن كانت تملأ هذا المنزل الآيل للسقوط.

وعاد يقول لنفسه: «ان الأمر في غاية السخافة! سأقول لها ان ترفض ذلك الرجل، وسنستمر على ما نحن عليه.»

بما أن الايرل ابتعد عن المجتمع الراقي بسبب فقره، كان قليل المعرفة بشخصية الدوق، فعدا عن معرفته بنجاحه الدائم في ميادين الخيل، فهو لا يعرف شيئاً عن تلك القصص التي تُحاك وتروى عنه.

ان الايرل يكره الثرثرة مهما كان نوعها، وهو في الواقع لا يجتمع الا بقلة من الناس وفي أوقات متباعدة، لذا، لم تكن له أدنى فكرة بأن الدوق سيء السمعة وأخباره تملأ لندن بكاملها.

وفكر أنه لمن الغرابة أن توافق سمالا على الزواج منه

بهذه السرعة، بالرغم من أنه كان يعلم بل ويؤكد بأنها ستكون آمنة ومحمية حتى آخر يوم في حياتها.

وعاد يسأل نفسه: «ولكن هل هذا سيجعلها سعيدة؟»

قرر أن يطرح هذا السؤال عليها، ولكنه عندما دخل غرفة المكتب، لم يجدها هناك.

• • •

تلقى الدوق رسالة في منزله في نيو ماركت من أحد السائسين، تقول له فيها بأن عروسه ستكون ابنة ايرل كتوين واسمها سمالا.

وقرأ ما كتبته شقيقته، ثم لوى بفمه اشمئزاز عندما أضافت:

سمالا فتاة جميلة جداً. إنها في الواقع قريبة من القلب، فهي ومن المؤكد ستليق بجواهر باكهرست.

كما أريدك أن تعرف بأن عائلة وين، عائلة عريقة ومميزة كعائلتنا. ان الايرل بهي الطلعة ويتمتع بمزاج طيب، ولكنهما فقيران جداً.

إن المنزل جميل جداً من الخارج، ولكن الفقر يستقبلك بكل معانيه في داخله، وعلى ما يبدو، أنه لا يوجد خادم واحد، فخامرني شعور، بأن أكثر غرف هذا المنزل قد اقفلت منذ زمن بعيد.

كما أن الحديقة مهملة جداً، والطريق الخاص الذي يؤدي إلى المنزل تمتلىء بالحفر والأخاديد، لكن سمالا مثل الزهرة المتفتحة ولا أعتقد بأنك ستشعر بخيبة الأمل...

لم يكلف الدوق نفسه باتمام قراءة الرسالة، بل وضعها

في الجارور، ثم خرج من الغرفة ليجد ضيفة لم يتوقع زيارتها حتى أنه لم يدعوها إلى الحفلة التي قررها في هذا المنزل الرائع من نيو ماركت. وأبلغه الخادم بأن هناك سيدة تريد رؤيته.

فسأله الدوق: «سيدة؟ من تكون؟»

«لم تعطي اسمها يا سيدي، وقد قالت فقط، ان الأمر في غاية الأهمية ويجب أن تراك في الحال.»

نظر الدوق إلى الساعة بنفاد صبر.

فقد كان على وشك أن يصعد إلى الطابق الأعلى ليبدّل ملابسه استعداداً لسهرة الليلة، واذا كان هناك شيء يكرهه، هو ان يكون على عجلة من أمره عندما يكون قد تأخر عن موعد استحمامه أو عن موعد للعشاء يكون مدعواً إليه.

فكر أن يقول للسيدة كانت من تكون، ان تعود أدراجها وتأتي لمقابلته غداً، ولكنه رأى بعد أن فكر مرة أخرى، بأن ارجاء الأمر للغد قد يسبب له ازعاجاً أكثر.

لذا فقد اضطر أن يوافيها إلى غرفة الجلوس الصباحية وعلامات عدم الرضى ظاهرة في مشيته.

ولكنه عندما فتح باب الغرفة، تبدلت ملامح الانزعاج ليحل محلها الفرح والسعادة، فوقفت السيدة عندما شاهدته، ثم مدت يدها لمصافحته.

فقال الدوق في الحال: «يا لها من مفاجأة لم أكن أتوقعها!»

فأجابت البارونة: «جئت إليك اطلب منك طلب، لقد وصلت إلى نيو ماركت اليوم ووجدت أن الحجز في الفندق قد الغي

بسبب خطأ حصل، فإذا لم تستقبلني في منزلك، لا أدري أين بإمكاني أن ألقي رأسي المتعب.»

لم يصدق الدوق كلمة واحدة من الذي قالته، إنما الطريقة التي تكلمت بها كانت ملفتة، كذلك لكنتها المتكسرة جذبته إليها.

ثم سألها: «هل أنت بمفردك؟»

أجابت: «سينضم إلي زوجي في وقت لاحق، وذلك لأن بعض السياسيين المهمين وصلوا منذ بعض الوقت من باريس، لذا لم يستطع مغادرة لندن.»

مرة أخرى، تأكد للدوق أن ما تقوله غير صحيح، لكن ما من جدوى لأن يقول لها ذلك.

تابعت البارونة تتوسل: «أرجوك يا سيدي، اسمح لي أن أبقى في منزلك لهذه الليلة، وربما أتمكن غداً من أن أجد تسهيلات أخرى.»

لم يكن بوسع الدوق في هذه الحالة، سوى أن يوافق على طلبها ويستضيفها في إحدى غرفه العديدة والمريحة.

لكن عندما ينتهي السباق في نيو ماركت، وبما أن الدوق لا يرغب في العودة إلى لندن ليستمع إلى أصدقائه يتحدثون بأمر زواجه المقبل وفي خيبته واضطراره للقيام بمثل هذا الشيء، قرّر أن يأخذ البارونة إلى منزل آخر من منازله العديدة في ليسيستر شاير.

إنه ومنذ ان جاء إلى نيو ماركت، لم يفكر كثيراً بأمر زواجه، عندما كتبت له المركيزة لتقول له ان ابنه ايرل كنوين ستكون زوجته، فكر فقط بان كل شيء يسير تماماً حسب خطته.

فبهذه الخطوة المهمة في حياته، سيتمكن من ايقاف ادموند عن التفكير بأنه قد يصبح الدوق في يوم من الأيام، كما أن لوتي ستتوقف هي الأخرى عن التفكير بأن طفلها الذي لم يولد بعد سيرث الدوقية منه.

* * *

وصلت السيدة برتن مصممة الأزياء، بعد اسبوع بالضبط من زيارة المركيزة للايرل كنوين، وقد حملت معها صناديق عديدة تحتوي على فساتين متنوعة أدهشت سمالا.

فهي ومنذ وقت طويل لم تشتري ثوباً جديداً، أو حتى لم تحمل مجلة أزياء نسائية، ولم تكن لها أدنى فكرة عن الموضة الحديثة، حتى أنها فكرت عندما شاهدت ما ترتديه المركيزة، بأنها قد تكون في غاية السعادة لو أنها تمكنت في الحصول على مثله.

لكن اليزابيت هال التي كانت تعتبر من الجميلات، كانت تدرك بأن للملابس أهمية بحد ذاتها، هذا بالإضافة، إلى أنه وبالرغم من كراهية شقيقها لفكرة الزواج، فهو سيحب زوجته مع الوقت.

لكن عقلها أنبأها من ناحية أخرى، بأنه أمر مستبعد وهي التي تعرف مبادىء شقيقها كل المعرفة. إنما هي رومانسية في قلبها، ولقد أضحكت شقيقتها مارغريت من ذلك كثيراً، وحيرت زوجها الذي لم يستطع أن يفهم ما قد تعني بهذه الرومانسية، كانت تعتقد بالقصص العاطفية كما تعتقد بان شقيقها ستتبدل نظرته عندما تقع عيناه على سمالا.

لقد لاحظت في شعر سمالا الأشقر، وفي عينيها الزرقاوين، ووجهها الطفولي البريء، بأنها تتمتع بجمال غير عادي، ولكن في نفس الوقت كان عندها شعوراً لا يريحها، وهو أنه من الممكن جداً أن لا يقدر شقيقها مثل هذا الجمال الفريد.

لقد فرحت في البداية كثيراً عندما وافقت سمالا على هذا الطلب الغريب في أن تتزوج بعد ثلاثة أسابيع فقط، لكنها وكأنما خشيت عليها، توجهت أفكارها إلى شقيقها إذا كان سيحسن معاملتها.

وبما أنها امرأة طيبة، وتعرف كم قد يكون شقيقها باك صعب المراس، عقدت العزم على أن تبدو سمالا بجمال دائم وأن تعززه. فلقد وجدت فيها فرقاً كبيراً عن النساء اللواتي عرفهن باك، خاصة وأن المركيزة شاهدت البارونة في مرة من المرات وأدركت من مظهرها ومن شعرها الداكن أن مثل هذا الجمال يسعى وراءه شقيقها، بينما سمالا كانت العكس تماماً.

أرادت مارغريت أن تتعرف بسمالا، فتوجهت مع شقيقتها المركيزة وزوجها المركيز بعد يومين من زيارتها الأولى لها، لتجدها في غرفة المكتب تنسق الأزهار.

تفاجأت سمالا بتلك الزيارة التي لم تكن مستعدة لها، لكنها رحبت بهم بأدب، ففكرت المركيزة في أن هناك شيء غير عادي في هذه الشابة.

لم يبدُ على سمالا الارتباك وهي في ذلك الثوب القطني القديم الذي اختفى لونه الأساسي لكثرة الغسيل

المتكرر، حتى أنه أصبح ضيقاً بعض الشيء عند الخصر.

ولقد رفعت شعرها إلى الأعلى على شكل كعكة، وهذا ما كانت تفعله دائماً عندما تذهب في نزهة على صهوة جوادها، فقدّرت المركيزة والسيدة بريدون موقفها من عدم تقديم الاعتذار لمظهرها أو للحالة التي آلت إليه المنزل، بل اتجهت إلى المطبخ لتحضر لهم الشاي ومن ثم لتقدمه لهم بنفسها.

ثم قالت: «آسفة، فليس لدينا حلويات لنقدمها مع الشاي، لكن إذا أحببتم يمكنني أن أقطف لكم بعض الخضار من الحديقة.»

فأسرعت المركيزة تقول: «لا، فنحن لسنا جائعين، فقط نشعر بالعطش من بعد هذه الرحلة، وهذا الشاي الجيد يفي بالغرض.»

لكنها كانت تعلم، بأن هذا الشاي الذي تتذوقه لهو من أرخص الأنواع، فابتسمت سمالا ابتسامة رقيقة وكأنها تشكرها على ذوقها وأخلاقها، كما أنها تظاهرت بعدم مشاهدتها للسيدة بريدون وهي ترشف منه القليل وتضعه على الطاولة دون أن تمسكه مرة أخرى.

تحدثوا لبعض الوقت، ثم جاء الايرل وأبدى بعض الدهشة لزيارتهم المفاجئة هذه.

رحّب المركيز به كثيراً، وسرعان ما بدآ يتكلمان بأمور الجياد ومشاكلها وعن الصعوبات التي يمرّ بها المزارعون في هذه البلاد، دون أن يتخلا السيدات في حديثهما.

وقالت المركيزة لسمالا: ستصلك البعض من ملابسك بعد يوم غد، واتساءل يا فتاتي الصغيرة، إذا كنت تريدين مني

أن أجيء إليك لأساعدك في اختيار بعض التصاميم الأخرى التي ستحضرها معها السيدة برتن.»

أجابت سمالا: «أودّ ذلك من صميم قلبي إذا لم يكن في الأمر من ازعاج، لكنني أطلب منك بل أرجوك أن لا تبالغي في جلب الأشياء الكثيرة.»

ثم تابعت بصوت منخفض: «ذلك لأن والدي سيشعر بالاحراج لأنه لا يستطيع أن يقدم لي جهازي.»

فقالت المركيزة: «لقد فكرت بأنك ستشعرين بذلك. فحتى لو كنت فتاة غنية، لكنت قدمت لك دبوساً كبيراً من الماس أو عقداً ثميناً. إنما اعتقدت بأنك ستعتبرين الأمر أكثر عملياً لو حصلت على الثياب الجميلة وكل ما يلزمها من أشياء أخرى.»

ضحكت سمالا وقالت: «معك حق. فلا يمكنني أن أتصور بأن أي كان سيتأثر بالدبوس الماسي أو بالعقد الثمين مع هذا الثوب البسيط.»

ابتهجت نفس المركيزة ومارغريت بريدن من صراحتها ومن ضحكتها الحلوة.

فقالت السيدة بريدون: «إنها رائعة، وأعتقد بأننا محظوظين لأننا عثرنا على الزوجة المناسبة لباك. كما أنها شخصية ستملئ مركز الدوقة بفخر واعتزاز.»

فعلّق المركيز قائلاً: «ما آمله فقط، هو أن يعتقد باك ما تعتقدينه أنت.»

ثم خيّم الصمت لفترة قليلة. فقد كان ثلاثتهم يفكرون بأن باك سيجد فارقاً بين النساء اللواتي عرفهن وبين مثل هذه الفتاة الريفية التي لا تملك ثوباً بديعاً لغاية الآن، والتي

أيضاً لا تعرف شيئاً عن المجتمعات الراقية، والتي في نفس الوقت جمالها لا يقاوم.

فسألت مرغريت بصوت منخفض: «هل أن تلك المرأة ما زالت معه؟»

طأطأ المركيز برأسه وقال: «لقد قال لي أحد أصدقائي هذا الصباح، بأنه تناول العشاء مع باك أول من أمس وكانت موجودة معهما.»

فتبادلا النظرات مع بعضهما بذعر، ثم وبما أنه لم يبق شيء ليقولونه، ودعا سمالا ووالدها وعادوا أدراجهم.

الفصل الثالث

فكرت سمالا وهي عائدة مع والدها من نزهتهما، كم انهما سعيدان معاً دائماً.

لقد امتطيا جواديهما لفترة طويلة وتحدثا كثيراً عن العقار المؤجر وعن الصعوبات التي يواجهانها مع المستأجرين القدامى والذين منازلهم تحتاج إلى ترميم واعادة البناء، كذلك عن المدرسة التي في القرية والتي لا تفي بالشروط الكاملة وتحتاج إلى مدرس جديد.

ومما قاله الايرل بهذا الخصوص: «لو انه فقط يمكنني ان اجد مدرس جدير بمهنته لاولاد القرية، فسأشعر عندئذ بانني قدمت واجباتي تجاههم في المستقبل.»

ففكرت سمالا بوالدها الذي يفكر دائماً بالاشخاص الآخرين اكثر مما يفكر بنفسه، كما انها تعلم بان والدتها كانت بنفس صفاته.

«لو كان لوالدي القليل من المال فقط.» همست لنفسها وهي تقود الجواد إلى الاسطبل، الذي كان ينتظره كالعادة لا شيء سوى الماء والتبن.

وكان السائس والترز مسناً وكل ما كان باستطاعته ان يقوم به، هو تنظيف الحجيرات التي تبيت فيها الجياد، وعندما لا تشتد عليه آلام الروماتيزم، كان يسيس الجياد إلى الاسطبل.

مما يدل انه يتوجب على سمالا ووالدها بان يقومان بكل

الأشياء الأخرى بنفسيهما، وبالرغم من ان كليهما لا يمانعان بذلك، كانت سمالا تدرك أن هناك اموراً اكثر أهمية ليقوم بها والدها، لكن الأحوال المادية تقف حاجزاً بينه وبين تنفيذ ذلك.

انها تعرف كم انه ذكي وماهر، وكيف عندما يتناولان أية وجبة يتحدثان بامور تنسيهما في الحال مشاكلهما، فقد كان والدها يبدأ بالأحاديث العامة والمشاكل التي يعاني منها العالم بأسره.

كما انها كانت تعلم، انه مهما بدا عليها الشقاء والفقر، فلا يستطيع أي كان بان يقول عنها أنها غير مثقفة.

فعندما كان والداها يستطيعان تحمل المصاريف، كانت دائماً تحظى بمدرسين لكل مادة مهمة، ولكن وعندما استحال عليهم ذلك، اخذا يعلمانها هما بنفسيهما.

فلقد فاز والدها بشهادته من جامعة اوكسفورد، كما انه كان مطالع نهم وكذلك والدتها.

انها تذكر منذ ان كانت طفلة، ما كان يدور بين والدها ووالدتها من احاديث هامة حول العلوم السياسية والتاريخية، وكانا لا يشعرانها ابداً أنه وبالنسبة لسنها، لا يمكنها ان تشاركهما في هذه الاحاديث.

الآن وبعد ان خلعت عنها ملابسها لترتدي فستاناً من فساتينها القطنية القديمة، تساءلت مع من قد يتحدث والدها عندما تخرج نهائيا من هذا المنزل.

لقد حدث الكثير منذ ان زارتهما المركيزة بطلبها الغريب، حتى ان سمالا شعرت بانه قد غاب عن ذهنها انه متى ستتغير حياتها، ستبقى حياة والدها على حالها.

فسألت نفسها: ماذا بامكاني ان افعل لاجله، ماذا سافعل؟

ثم ظهر لها فجأة أنها تعرف الجواب على مشكلتها.

فبعد ان تناولا طعام الغداء الذي كان كالعادة معتمد على طيور الحمام الذي يصطادونه في مثل هذا الوقت من العام، سألته سمالا بتردد: «ما الذي ستفعله يا والدي بعد ظهر هذا اليوم؟

«سأراجع حسابات المزرعة والايجارات مع السيد أوين موظف المصرف. اعرف بأنه سيكون اجتماع محزن ودون شك مخيب للآمال، لذا اقترح عليك الا تنضمي الينا.»

أجابت سمالا: «انني لست متحمسة لذلك يا والدي، كما وانني متأكدة بأن السيد أوين سيسدي اليك افضل النصائح.»

فقال الايرل: «الشيء الوحيد الذي يمكنه ان يساعدني فيه، هو ان يمنحني قرضاً كبيراً، لكن الذي يحيرني، كيف يمكنني ان اطلب منه ذلك، وانا ليس عندي أية فرصة لأرد له هذا المبلغ؟»

تكلم بمرارة قاسية لم تعهدها منه من قبل، ثم نهضت من مكانها واحاطته بذراعيها وقبلته بحنان.

قالت بعد ذلك: «ربما قد نجد اخيراً يا والدي وبطريقة من الطرق وعاء ذهبياً في قوس القزح، وتتغير احوالنا.»

أجابها الايرل: «هذا ما احاول باستمرار ان اتأمله، لكن آمالي بدأت تتلاشى عني بقوة، انما الذي يعزيني، هو انك على الأقل ستحصلين على كل شيء في هذه الحياة.»

تحمست سمالا لأن تقول له بانها ستشاركه بكل شيء قد تحصل عليه، ولكنها كانت تعلم انها لو قالت ذلك، سيجيبها

بغضب وعزة نفس بأنه لا ولن يقبل احساناً من احد خاصة من صهره.

فقالت بينها وبين نفسها: سأتمكن من مساعدته بطريقة من الطرق، انما الأمر لن يكون سهلاً.

صعدت سمالا إلى الطابق الأعلى بينما توجه والدها إلى غرفة المكتب لينتظر السيد أوين مدير المصرف الذي يعجب كثيراً بالايرل ويحترمه، ويساعده دون ان يتقاضى قرشاً واحداً.

بدلت سمالا ملابسها بملابس ركوب الخيل، ثم توجهت إلى الاسطبل لتسرج جوادهما الثالث، الذي كان انشط من الجوادين الآخرين بسبب عدم خروجه هذا الصباح للتمارين اليومية.

لم تكن تحب هذا الجواد كما تحب مركوري، لكنه كان افضل من الآخرين في جر العربة، وكان يترك عادة للحالات الطارئة.

كان من الأسرع لسمالا ان تعبر الريف لتصل إلى هدفها، من ان تتخذ الطرقات المتعرجة والمنحرفة، والتي قد تطيل رحلتها بشكل ملحوظ.

لذا فقد تمكنت بمدة لا تزيد عن الخمسة والاربعون دقيقة ان تدخل من الباب الحديدي الضخم إلى مكان كان يدعى بالمنزل الكبير.

نزلت سمالا عن صهوة الجواد، فأسرع إليها سائس من الاسطبل ليأخذه منها، وعندما صعدت الدرجات القليلة، استقبلها خادم متوسط العمر ليقول لها مبتسماً: «نهارك سعيد ايتها الآنسة سمالا.»

اجابته: «نهارك سعيد يا وايت! هل السيدة هنلي في الداخل؟»

اجابها الخادم: «انها عادة لا تستقبل احداً يا آنستي، ولكنني اؤكد بانها سترحب بك.» ثم مشى امامها عبر القاعة وإلى غرفة الجلوس وقال: «ان الآنسة سمالا وين هنا يا سيدتي!»

هتفت السيدة بترحاب وكانت تجلس قرب النافذة تطرز بقماش كبير. وضعته جانباً واتجهت بسرعة نحو سمالا تمد لها ذراعيها قائلة: «سمالا، يا لها من مفاجأة سعيدة! لقد فكرت انك نسيتني.»

اجابت سمالا: «بالطبع لم انساك، لكن حدثت أمور كثيرة اخرتني عن زيارتك، وحتى عن مراسلتك.»

فسألتها السيدة هنلي: «ما الذي جرى؟ تعالي واجلسي إلى جانبي ثم اخبريني بكل شيء، واظن انك بحاجة لبعض الشراب المنعش.»

اجابت سمالا: «لن ارفض منك بعضاً من القهوة المثلجة اللذيذة، فانا في الحقيقة كنت افكر فيها طوال المسافة التي تفصلني عنك.»

ضحكت السيدة هنلي، والخادم الذي كان مازال عند الباب، اسرع ليحضر لها القهوة المثلجة.

جلست سمالا على المقعد القريب من النافذة وخلعت قبعتها لتغمر اشعة الشمس شعرها الذهبي بدفء وحنان.

فقالت السيدة هنلي: «تبدين في غاية الجمال يا صغيرتي العزيزة، ولقد اشتقت إليك كثيراً.»

أجابت سمالا: «لقد اشتقت إليك انا أيضاً، وتمنيت لو تأتين لزيارتنا.»

حولت السيدة هنلي نظرها إلى التطريز الذي بين يديها مفكرة ثم قالت: «انت ووالدك في شغل دائم، فلم أشأ ان اتطفل عليكما.»

أسرعت سمالا تقول: «والدي مشتاق إليك كثيراً، وحتى انه تساءل عندما تأخرت عن زيارتنا فيما لو ذهبت إلى لندن.»

توقفت سمالا قليلاً ثم اضافت: «في الحقيقة جئت لزيارتك بسبب والدي.»

«بسبب والدك؟»

كان في صوت السيدة هنلي دهشة لا شك فيها، ولكنها بدت اصغر بكثير من عمرها الذي ناهز الخامسة والثلاثين.

لم تكن مورين هنلي جميلة، لكنها كانت تتمتع بوجه لطيف وعذب يجذب الناس إليه بسرعة.

ولقد احبتها سمالا منذ ان تعرفت عليها لأول مرة، وذلك عندما انتقلت لتعيش في الجوار كعروسة للقائد العام الكسندر هنلي، الذي تزوجها في سن التقاعد، وكانت تصغره بسنوات عديدة.

كانت ابنة ضابط في الجيش وقد توفي متأثراً بجراحه في احدى المعارك.

لذا ولأنها كانت محطمة الفؤاد من موت والدها، ولأنها أصبحت وحيدة في هذا العالم، شعرت مورين بأنها ستجد الحماية والرعاية بين احضان رجل كبير السن بعمر جدها.

وكانت زوجة مخلصة للقائد العام، ولكنهما لم ينجبا

أولاداً، فوجدت نفسها تغرق في عز كبير من العقارات والثروة التي كانت كافية لأن تجعلها سعيدة وفي بحبوحة.

لكنها وبما انها عاشت دائماً حياة هادئة، أولاً مع والدها العاجز، وثانياً مع زوجها المسن، احتارت ماذا تفعل بكل هذه الثروة. لذا، فقد كرست ونذرت نفسها على ان تقوم باعمال تعود بالخير لهذه البلاد، وسعت بالراحة النفسية لوالد سمالا الايرل، عندما تكفلت بملجأ للايتام الذي يقع في عقاره.

كانت السيدة هنلي في البداية، تأتي إليهما كلما وجدت صعوبة في حل أية مشكلة.

ثم شعرت سمالا بالغرابة عندما بدأ والدها يتجنب رؤيتها، حتى انه وفي مناسبتين عندما يرى عربتها الأنيقة، كان يخرج متسللاً من المنزل عبر الباب الخلفي ولا يعود الا عندما تغادره.

فسألته سمالا في ذلك الوقت: «الا ترغب في رؤية السيدة هنلي يا والدي؟ لطالما اعتقدت بانك معجب بها.»

فأجاب الايرل: «انها انسانة رائعة، لكن ليس من الجائز ان تضيع وقتها برعاية الايتام، بل من الافضل ان تتزوج وتتمتع بحياتها.»

نظرت سمالا إليه بدهشة ثم قالت: «ربما تشعر بأنها كبيرة في السن؟»

فقال والدها بحدة: «تقولين كبيرة في السن؟ انني لم اسمع يوماً بمثل هذه السخافة! انها مازالت صغيرة وجميلة وعليها ألا تخسر نفسها في مثل هذا الجزء من العالم.»

انه لم يتكلم بحدة فقط بل بقسوة شديدة، حتى انه خرج

من الغرفة واغلق الباب بشدة وراءه، لدرجة انه اذهل وادهش سمالا.

وتساءلت، هل ان والدها وموريين تشاجرا في امر من الأمور، لكنها لم تلح عليه لتستعلم منه ذلك، ولم تعبر كذلك عن دهشتها عندما توقفت السيدة هنلي عن زيارتهما.

الآن، وبما انها اصبحت ناضجة، ويمكنها ان ترى الأمور بمنظار مختلف، اعتقدت انها فهمت كل شيء، وعليها بطريقة ما ان تضع الأمور في مكانها الصحيح.

ثم قالت سمالا للسيدة هنلي: «قبل أي شيء، يجب ان اطلعك على اخباري، انني سأتزوج!»

هتفت مورين بسعادة: «ستتزوجين؟ آه يا عزيزتي انه خبر مفرح! لكن من هو سعيد الحظ هذا؟»

أجابت سمالا: «الخبر لا يصدق، لكنه حقيقي! لقد طلب يدي دوق باكهرست.»

ولأنها شعرت بالخجل من هذا الكلام كأي فتاة في سنها، لم تنظر إلى مورين هنلي حين تكلمت، ولم تتمكن من ملاحظة النظرة المشككة التي اطلت من عينيها ومن ثم نظرة القلق والاهتمام.

فكررت ما قالته سمالا: «دوق باكهرست؟ هل انت متأكدة؟»

أجابت سمالا مبتسمة: «هذا ما اسأل نفسي دائماً، نعم، انا متأكدة، كما وانني سأتزوج في الثاني من شهر حزيران ـ يونيو.»

«ولكن هذا يعني بعد اسبوع من هذا اليوم!»

«نعم، اعرف.»

«ولكن لماذا لم اعرف ذلك من قبل؟ لماذا، هل هو سر من الأسرار؟»

أجابت سمالا: «لن يكون سراً بعد اليوم، لأن النبأ سينشر في الجريدة الرسمية، واتوقع ان تصلك الدعوة بذلك غداً أو على ابعد تقدير بعد غد، واعرف ان المركيزة هال وهي شقيقة الدوق، سترسل بطاقات الدعوة حالما ينشر الخبر في الجريدة.»

قالت سمالا ذلك وهي لا تدري لماذا تأخر المركيز والمركيزة بارسال هذه البطاقات اكثر من اللزوم، واما السبب في ذلك، لأنهما وببساطة يأملان من الدوق ان يعود من ليسيستر شاير من دون صحبة البارونة.

لذا، وبما انه لم يظهر بعد، شعرا بانهما مجبران لكي يتجنبان الثرثرة التي قد تنشأ من ذلك، ان لا يعلنان عن نبأ زواجه من سمالا الآن.

بينما كانت سمالا منشغلة في هذه الأثناء بالثياب الجديدة التي وصلتها من لندن، وقد جاءت المركيزة لمرتين على التوالي، لتساعدها في انتقاء فساتين أخرى مع السيدة برتن.

كما انها أكدت لسمالا في مناسبات عديدة، كم ان الدوق سعيد بموافقتها على الزواج منه وينظر بشوق وينتظر موعد الزفاف في الثاني من شهر حزيران ـ يونيو.

اما الآن وبعد ان عرفت مورين بنبأ زواج سمالا من دوق باكهرست قالت: «انها في الواقع مفاجأة لم اتوقعها يا عزيزتي، لكنني اتمنى لك السعادة من صميم قلبي.»

فقالت سمالا: «هناك شيء واحد يجعلني قلقة ويائسة.»

«وما قد يكون ذلك؟»

أجابتها: «والدي، فأنا اشعر بأنه سيكون وحيداً، وبصراحة لن يستطع ان يتصرف لشؤون المنزل من دوني.»

وعندما لم تجب السيدة هنلي، تابعت سمالا تقول: «اعرف تماماً بأن عليه ان يحاول التغلب على ذلك، ولأنه يشعر منذ الآن بالقنوط واليأس، اتساءل لو انك تأتين إلى منزلنا وتمضي فيه بضعة ايام بينما اكون انا منشغلة بالملابس التي تصلني باستمرار، وربما قد تتمكنين من مساعدتي في اقناعه بأن يتدبر شؤونه عندما اغادر المنزل نهائياً.»

تنهدت مورين هنلي وقالت: «تعلمين انني قد اقوم بأي شيء لمساعدتك يا سمالا، ولكن ربما والدك لا يريدني.»

أجابت سمالا: «بالطبع سيريدك، كما وان هناك الكثير من الامور التي بوسعك ان تساعديني فيها، لو انك فقط تفسحين المجال لذلك.»

طوت السيدة هنلي قماش التطريز قائلة: «سأذهب معك الآن، وسيحزم الخدم امتعتي بوقت قليل، كما ان احد السائسين سيعيد جوادك إلى المنزل، بينما نستقل نحن العربة لتتمكني من ان تخبريني بالذي تريدينني فعله.»

فقالت سمالا: «هذا لطف كبير منك، واعلم ان هذا سيفرح والدي.»

توقفت قليلاً لتتابع: «ما اخشاه، انك لن تشعرين بالراحة الكاملة في منزلنا، فإذا كنت لا تحبين الحمام المشوي، فلن تجدي شيئاً آخر لتأكليه.»

ضحكت مورين هنلي حتى انها بدت جذابة واصغر سناً

مما هي عليه، ثم قالت: «انني في الحقيقة اكره الحمام، هل تعتقدين بان والدك سينزعج لو انني احضرت معي دجاجة أو اكثر؟»

اجابت سمالا: «إذا وضعتهم في المطبخ ساعة دخولك إلى المنزل، لن يعرف بأنها ليست لنا، فنحن لا نذبح هذه الدجاجات كي لا نخسر البيض الذي تبيضه.»

ضحكت السيدة هنلي من جديد، ثم شاركتها سمالا الضحك وبدتا وكأنهما ما تزالان تلميذتين في المدرسة.

وعندما غادرتا، كانت العربة محملة بالطعام الكثير وبانواع مختلفة من الشراب.

ثم قالت مورين هنلي وعينيها ترقصان: «اعتقد انه يتوجب علي ان اخبرك شيئاً ما. فلقد طلب مني الأطباء ان اشرب انواع معينة من الشراب التي لا تؤذي معدتي، وسأشعر بالحرج، اذا لم تشاركاني انت ووالدك فيها.»

أجابت سمالا بسعادة بعد ان قبلتها: «انك تعرفين كم ان والدي كريم النفس، لذا اطلب منك ان تنتبهي جيداً في تصرفاتك معه.»

اختفت الابتسامة عن وجه مورين هنلي وقالت: «نعم... اعرف.» ثم ابعدت بوجهها إلى الناحية الأخرى.

اخذتا تتحدثان بأمور مختلفة والعربة تنطلق بهما فوق الطرقات الملتوية والمتعرجة.

وعندما اقتربتا من المنزل الذي بدا في غاية الجمال مع اشعة شمس بعد الظهر عليه، شعرت سمالا بالقلق الشديد من ان تحبط مساعيها. ثم قالت: «اشعر بالأسف لأن الخادم العجوز الأعرج سيضطر لأن يحمل امتعتك وهو

الذي لا يقوى على حمل شيء بعد اصابته بالروماتيزم.»

أجابت مورين بصوت منخفض: «السائس جايمس سينقل امتعتي إلى الداخل وسينقل الأطعمة إلى المطبخ أيضاً.»

ابتسمت سمالا لها وخرجت هي أولاً من العربة واسرعت تصعد الدرجات القليلة إلى القاعة ومن ثم إلى غرفة المكتب.

وكما توقعت، وجدت والدها وحيداً بعد ان خرج السيد أوين.

فبادرته قائلة: «لدي اخبار سارة يا والدي، وبما انه لدي الكثير لأقوم به قبل الزواج، طلبت من مورين هنلي أن تأتي معي لتساعدني، وبلطفها المعتاد وافقت على طلبي هذا.»

فقال الايرل: «وأنا الذي تساءلت إلى أين ذهبت، لكن كيف يجوز ان تبقى السيدة هنلي هنا؟»

«ولما لا، فلدينا غرف عديدة.»

لم يبتسم والدها، فأضافت: «انها لن تمانع.»

فقال بحدة: «انا امانع... لكن...» وكان الذي اراد ان يقوله، قد تكسر على شفتيه عندما دخلت مورين هنلي فجاة.

كانت تبدو جذابة جداً، لكن عينيها كانتا قلقتان بينما بدا صوتها عندما تكلمت مضطرب جداً: «إذا كنت لا تريدني بينكما، يمكنني في الحال ان استبقي السائس واعود معه.»

أجاب الايرل: «بالطبع اريدك، كما وانه على الأقل تريد سمالا ذلك، كما وانني شاكر لك قدومك لمساعدتها خاصة وانه ليس لها والدة في هذه الحالة.»

ثم تقدم الايرل منها ليضيف بعمق: «الذي يقلقني فقط،

انني لا استطيع ان أؤمن لك الراحة التي قد تعودت عليها.»

أجابته: «ارجوك ان لا تقلق، لأنني حقاً سأشعر بالراحة، خاصة انني ساكون مع سمالا... ومعك. لا يمكنني ان اعبر كم اشتقت لكما.»

لكن الايرل وعلى نحو مفاجيء وفظ، ابتعد عنها إلى طاولة مكتبه، وكأنه قد يجد الراحة هناك إلى جانبها اكثر، ثم قال بنبرة مختلفة عن الأول: «انك لن تبقين طويلاً هنا، خاصة وان سمالا ستتزوج، فمن المفترض انها قالت لك بأن زواجها سيكون في الثاني من شهر حزيران - يونيو.»

ففكرت سمالا ان الايام ستكون صعبة، وان مزاج الايرل قد يتقلب دون أي سبب يذكر وينزوي صامتاً لا يجلب الراحة لها ولمورين هنلي، كما انه قد يتركهما ويدخل غرفته متمتماً ببعض الاعذار المبهمة.

فعندما لا يكونوا في غرفة الطعام، لا تجدان له أي اثر، وتتساءل سمالا ما الذي عنده ليشغل نفسه به في الخارج.

شعرت بغريزتها دون ان تسمع باذنيها، بأن مورين هنلي معجبة بوالدها، وبأنه يبادلها هو أيضاً هذا الاعجاب.

فسألت نفسها: «ما الذي يمكنني ان افعله تجاههما؟» ثم استلقت فوق سريرها تفكر بقضيتهما بينما كان يتوجب عليها ان تفكر في هذا الوقت بحياتها هي وبالذي قد ينتظرها من هذا الزواج الغريب.

انها لا تتحمل التفكير بأن والدها سيكون تعيساً بعد ان ملأ حياتها ببهجة وسعادة، وقد احبته حباً شديداً لا يمكن ان يعبر عنه باي كلام.

كما وانها لا تتحمل التفكير كيف سيكون حال والدها

ومن سيخدمه بعد ان تخرج من المنزل نهائياً، خاصة وأن مدبرة المنزل بريجستوك قد اصبحت عجوزاً واقرب إلى العمى في بصرها، وزوجها السيد بريجستوك عاجز عن القيام بأي شيء.

فلو كانت مورين هنلي تفتقد إلى الخدم الكثر الذين يخدمونها في منزلها، فانها لم تظهر شيئاً من ذلك لا امام سمالا ولا امام الايرل.

وظهرت عليها السعادة لأنها تنام في غرفة جميلة وعلى سرير يقال ان الملكة اليزابيت نفسها قد نامت عليه، بالرغم من غطائه الذي تمزق من عدة جوانب.

«لا يمكنني ان اسكت على ذلك» قالت مورين ذات ليلة عندما وجدت مع سمالا كيف اهترأت قدم كرسي ثمين وقديم الطراز.

ثم تابعت وهي ترفعه عن الأرض: «يجب ان نصلحه على الفور.»

أجابت سمالا: «لا يمكن ان نتحمل مصاريف اصلاحه، كما ان هناك في العلية العديد من الكراسي كهذا، فبالرغم من ان والدي حاول اصلاح بعضاً منها، فهي مازالت تعتبر غير آمنة.»

جلست مورين على حافة السرير بطريقة اظهرت خيبة املها ثم قالت مرة ثانية: «لا يمكنني ان اسكت على ذلك! انه المنزل الاجمل من بين الذين شاهدتهم في حياتي، كما وانه يحتل مركزاً تاريخياً. يجب ألا ندعه يصبح حطاماً بل يجب ان يبقى رمزاً للحضارة والتاريخ.»

أجابت سمالا: «اعرف واشعر كما تشعرين تماماً. لكن

ماذا بوسع والدي ان يفعل؟ فهو لا يملك المال، وكرامته لا تسمح له بأن يكون صائد الثروات.»

خيم بعض الصمت بعد كلامها هذا، وكأنما شعرت سمالا بأنها قالت الكثير، تقدمت وقبلت مورين ثم قالت: «لا نفع من البكاء على حليب قد سقط ارضاً، وهذا حسب تعبير مربيتي، لكن الذي لا يمكن ان يشفى... يجب ان يعالج بطريقة أو بأخرى.»

أجابت مورين: «يمكن قول ذلك في مشاكل أخرى، ويجب ان يكون هناك حل آخر لهذه المشكلة.»

فقالت سمالا بخفة: «آمل ان تجدي هذا الحل، لأنني ووالدي حاولنا الكثير وفشلنا.»

ثم تمنت لها ليلة هادئة وذهبت إلى غرفتها، وقد ادركت انها كانت محقة باعتقادها بأن مورين هنلي معجبة بوالدها وتجد صعوبة في التعامل معه.

ثم وعندما سمعت وقع خطواته، ذهبت إلى غرفته التي نام فيها اجداده النبلاء وقالت له: «جئت لأتمنى لك ليلة هانئة ياوالدي.»

أجابها: «يسعدني انك فعلت ذلك، فقد كنت أفكر وأنا اصعد الدرجات إلى غرفتي، كم انني سافتقدك واشتاق إليك، ولن يبقى لي في هذا المنزل الكبير سوى اصوات الفئران تصدر من مخابئها.»

شعرت سمالا باليأس في صوته فقالت: «على الأقل هذه المقاطعة جميلة، فعندما تمعن النظر بمحاسنها ستنسى كل ما يحزنك ويقلقك.»

أجاب الايرل: «لسوء الحظ، لا شيء سينسيني ذلك،

فعندما انظر حوالي اشعر وكأن المنزل جندي جريح يحتاج إلى الرعاية والمعالجة.»

فقالت سمالا بثبات: «لكنني افضل ان اعيش هنا اكثر من منزل السيدة هنلي، لأنه لا يحيط به مناظر خلابة كمنزلنا، كما وانه موحش ومنفرد، واعرف انها لا تشعر بأنه يعني لها شيئاً كما يعني لنا هذا المنزل.»

اعترض الايرل قائلاً: «انه ملكها، ويمكنها ان تتحمل مصاريفه على اكمل الوجوه.»

«انني متأكدة لو ان والدتي مازالت على قيد الحياة، فستقول عنه بأنه بارد وكئيب، لأنه يخلو من الحب والحنان يا والدي، وهذا ما منحنا اياه منزلنا منذ اجدادنا القدماء.»

احاطها والدها بذراعه وضمها إليه قائلاً: «احب فيك خيالك وذكاءك يا عزيزتي.»

«اشعر يا والدي بأنني اريد ان ابكي احياناً لعزلتك القريبة، ولا يسعني ان اقوم بشيء حيال هذا الأمر. ان مورين هنلي ستكون وحيدة أيضاً، ولا يمكنني مساعدتها هي الأخرى، والذي اتمناه حتى اكون سعيدة، ان يكون الجميع سعداء أيضاً!» ثم قبلت والدها بعاطفة وحنان، وانسحبت إلى غرفتها، وهي تعتقد بأنها منحته شيئاً ليفكر فيه ولو لبعض الوقت قبل ان يغرق في النوم العميق.

* * *

في اليوم التالي، وبدلاً من ان يتقرب والدها من مورين، ابتعد عنها اكثر، وقد يكون الأمر مدهشاً ومستغرباً لو انهما تبادلا بضعة كلمات فيما بينهما خلال اليوم.

حتى انه لم ينضم اليهما لتناول طعام الغداء، ولم يرياه الا عند العشاء، فجلسوا جميعاً حول مائدة حوَت على اطعمة جيدة على غير ما هي عادة، وكانت مورين قد طلبتها من منزلها بالذات. ولدهشة الايرل، كان هناك عصيراً أجود من الذي اعتاد ان يشربه مع ابنته كل يوم.

«ما هذا؟» سأل عندما وجد إبريق الشراب الغير مألوف لديه على الطاولة.

أجابت مورين: «عندما شاهدت طبيبي، طلب مني ان أغير انواع العصير، خاصة بعد ان لمس تحسن صحتي، فأرجو ان تعطني رأيك به.»

تكلمت بصدق وبراءة، جعلت الشكوك تختفي من عيني الدوق، ومن دون ان يضيف كلمة أخرى، تناول إبريق العصير وملأ الأكواب الثلاثة.

عندما انتهى العشاء الذي تناوله والدها دون ان يعلق عليه بكلمة واحدة، والذي كان يحتوي على اطباق لذيذة وغنية والذي ليس بامكانه حتى ان يحلم به، قالت مورين: «اعتقد، وبما انها المرة الأولى التي نجتمع فيها حول مائدة واحدة، علينا ان نشرب نخب سمالا، فأنا اتمنى كما اعرف انت أيضاً، لتكون سعيدة جداً في حياتها الزوجية المقبلة.»

أجاب الايرل بثقل: «بالطبع.»

فقالت سمالا: «لا فائدة من كل هذا... لا يمكنني ان افعل ذلك... لأنني لا استطيع ترك والدي بمفرده دون وجود أي احد ليقوم على خدمته!»

حدق الايرل ومورين فيها، فتابعت سمالا: «اعتقدت انه

يمكنني ان ابتعد عنه وان تكون الأمور على احسن مايرام... ولكنني تذكرت بأن السيد بريجستوك وزوجته عاجزان عن القيام بأي شيء له... وقد يكون من القساوة والانانية ان افكر بنفسي وبسعادتي فقط، وان اترك والدي هنا من دون غداء جيد، وفي مكان اصبح اكثر وساخة ودون تنظيم.»

ثم حولت نظرها إلى والدها وتابعت تقول: «ارجوك يا والدي، هل ترسل السائس ليخبر المركيزة بأنني... غيرت رأيي؟ انني اريد ان ابقى معك في هذا المكان... وعلى الدوق ان يجد لنفسه عروساً أخرى.»

وعندما انتهت من كلامها، قامت واسرعت خارجة من غرفة الطعام.

اعادت مورين هنلي الكوب إلى الطاولة، بينما كان الايرل يحدق بالكرسي الذي كانت ابنته تجلس عليه وكأنه لا يصدق ما قد سمعه، ثم قال: «انها متوترة لأنها ستتزوج بهذه السرعة، لكنها ستكون في حالة افضل صباح الغد.»

أجابت مورين: «لا اصدق من ان سمالا شعرت بالتوتر مرة في حياتها، ويمكنني ان افهم تماماً ما تشعر به.»

فقال الايرل: «اعرف! اعرف! لكن ليس بوسعي ان اقوم بشيء تجاهها.»

لم تجب مورين، فتابع يقول: «كيف يمكنني ان افعل أي شيء؟ يمكنك ان ترى وتلمسي الفوضى التي اتخبط فيها.»

«ان سمالا تفهم ذلك جيداً، ولهذا السبب لا تريد ان تتركك.»

فقال الايرل بحدة: «بل عليها ان تتركني، صحيح

انني دهشت عندما وافقت على طلب الدوق، ولكن وفي الوقت نفسه، باكهرست كما تعلمين، ليس فقط رجل ثري ولكنه رجل رياضي ممتاز. فلا يمكنك سوى ان تعجبي برجل يفوز على مدى سنتين متتاليتين بالسباق السنوي للكأس الذهبي، كما انني اعلم بأنه سيفوز به هذا العام أيضاً.»

لازمت مورين الصمت، فتابع بعد لحظات قليلة: «لقد سبق لي وزرت مقاطعة باكهرست عندما كنت مازلت صبياً، انها حقاً رائعة بجغرافيتها، وسيكون لسمالا كل شيء.»

«كيف يمكنها ان ترضى بكل ذلك، وهي في الوقت نفسه قلقة عليك؟»

«عليك ان تقنعيها بنفسك.»

«لا اظن بأنها ستصغي إلي.»

فسأل: «إذاً، ماذا بوسعي ان افعل؟ فانا لا يسعني ان اسمح لها بأن تفوت فرصة ثمينة كهذه اكراماً لي.»

خيم صمت طويل هذه المرة قبل ان تقول مورين بتردد: «اعتقد ان سمالا... عندما طلبت مني المجيء إلى هنا... فكرت انه ربما قد اتمكن من مساعدتك أنت.»

كان وقع كلماتها على مسمع الايرل كحد السيف بالرغم من انها كانت تتكلم بلطف شديد، فاجابها بخشونة: «لا بد وانك تعرفين بالذي اشعر به تجاهك، ومنذ زمن طويل، لكنني لا املك شيئاً لاقدمه لك.»

لم تجب مورين، حتى انها شعرت بصوتها يختنق في حلقها، فتابع يقول: «انني اريدك وانت تعرفين ذلك... لكنني اشعر بالخجل والذل لعدم تمكني من ان اقدم شيئاً لك.»

عاد لمورين صوتها وقالت: «انك ستقدم لي اجمل منزل في بريطانيا بأسرها، ونفسك الطيبة.»

* * *

كانت سمالا تجلس في غرفتها في تلك الاثناء وقد اطمأنت بأنها قامت بكل ما في وسعها لتقرب والدها من مورين.

رأت وهي تعود بذاكرتها لبضعة سنوات إلى الوراء، بأنه كان عليها ان تقنع والدها في ان يشغل نفسه اكثر في شؤون الدولة وان يمضي أوقاتاً اكبر مع اصدقائه.

كان عليها ان تقنعه بدلاً من ان توافقه على اعتراضاته الكثيرة، وان تدعو الناس إلى منزلها حتى لو لم يكن عندهما الكثير ليقدموه لهم.

وقالت لنفسها: ان والدي مضيف كريم بطبعه، والاشخاص المخلصين لن ينزعجوا من قلة الضيافة طالما سيتحدثون إلى رجل ذكي وملهم مثله.

لكن العذر لعدم اقدامها على ذلك، يعود لصغر سنها في ذلك الوقت، ولسعادتها من بقائها مع والدها دائماً، ولأنها لا تدرك بأن الرجل يحتاج لامرأة تشاركه السراء والضراء في الحياة.

وتمنت لو ان هناك وريثاً لمقاطعته يستحق ان يحمل من بعده هذا اللقب العريق الذي ورثه عن اجداده.

عادت تقول لنفسها: اعرف انه لو تزوج مورين، بأن كل شيء سيتغير. لكن الذي كانت تخشاه ان تعود إليه كرامته، كرامة عائلة وين التي تجري في عروقه وتعيقه عن الاهتمام اكثر بمورين.

حولت سمالا نظرها إلى النافذة المفتوحة وإلى الظلام الدامس الذي تتلألأ فيه النجوم الكثيرة، وفكرت لو انها تفكر هذه المرة بنفسها.

فهي ليست بالغبية لدرجة ان لا تدرك بأن الدوق الذي طلبها ليس مغرم بها، ولأبسط دليل أنه لم يلتقِ بها مرة واحدة في حياته.

انها تعرف أيضاً ومن خلال الروايات الكثيرة التي قرأتها، بأن مثل هذه الزيجات تتم عادة بين النبلاء والارستقراطيين.

لقد نقلت هذه الروايات عن الواقع الحياتي والتقليدي في بريطانيا والذي نُقل بدوره عن القانون الروماني منذ العصور القديمة ومازال قائماً حتى الآن.

لذا فقد طلب دوق باكهرست زوجة لأن هذا ما عليه ان يقوم به أولاً وآخراً، بالإضافة إلى أن هذا الزواج سيمكنه من ان ينجب ولداً يرث امواله ويرث لقبه.

وباختياره لها لأمر مبهم ومجهول، الا اذا كان هناك سبب غريب لا تعرفه جعله يختارها هي بالذات من بين الفتيات الثريات اللواتي تتمنى الواحدة منهن ان تتقرب بدوق مثله.

ثم التفتت إلى النجوم في السماء قائلة: انني حقاً محظوظة جداً، ولكن ما اتمناه اكثر من ثروته الطائلة، ان يحبني ويحترمني كزوجة له.

تنهدت ثم تابعت هامسة: اطلب عندما يقع نظره علي، ان يخفق قلبه لي ويكتفي بانني العروس التي أختيرت له.

فتح باب غرفتها في تلك اللحظات، فأدارت سمالا رأسها

لتجد مورين تبحث عنها، وعندما وجدتها قرب النافذة تقدمت منها واحاطتها بذراعيها، فاكتشفت بأن قلبها كان يطرق بشدة.

ثم هتفت: «آه يا عزيزتي! كل شيء على ما يرام، فوالدك يحبني! وسنتزوج وسنعيش في هذا المنزل الرائع وسأقوم برعايته.»

ظهرت السعادة بأبهى معانيها على وجه سمالا ولاحظت دموع الفرح تنهمر على خدي مورين وعيناها تشعان مثل نجوم الليل.

الفصل الرابع

عاد الدوق إلى منزله قبل يوم الزفاف بليلة، وهو في مزاج سيء لا يحسد عليه.

لقد كان لا يزال مشمئزاً من اضطراره للزواج بعد أن حارب هذه الفكرة لفترة طويلة من حياته، ولم يفارقه شعوره بالاشمئزاز، حتى بعد أن علم بأن ادموند ابتدأ منذ الآن يعلن بأنه سيصبح الدوق والوريث الوحيد.

كما أن ادموند اخذ يعلن في المجتمع أن الدوق لن ينجب ابناً، لأنه وفي صغره تعرض لمرض ما، وأن عجوز شمطاء قالت بأن ولا من وريث سيرث من بعده منصب الدوقة.

لقد كان ذلك من ابتكار في ذهن ادموند المنحرف، والمجتمع كان يضحك كثيرا ويتجاهل هذه السخافة بكثير من السخرية.

لكن الدوق ادرك بأن اعداءه وهم كثر سيستغلون هذه القصة الكاذبة لمصلحتهم الخاصة. كما انها كذبة يكرهها ويحتقرها اكثر من اية كذبة أخرى، لأنها صادرة عن شخص مبتذل كادموند.

وهكذا عندما حط الرحال إلى لندن، جرى كل شيء بصورة جيدة، إلى أن فقد احد جياده حدوته.

ان مثل هذا الأمر عادي ويحدث دائماً، لكنه كان يوتر من كان يريد أن يحطم الرقم القياسي في الوصول إلى هدفه.

فبالرغم من ان الدوق يحتفظ بجياد في اسطبلات على

الطرق الرئيسية، خاصة تلك التي تقع بين لندن ومقاطعة باكهرست، فقد كان عليه أن يتقدم ببطء شديد وانتباه لأكثر من خمسة اميال قبل ان يتمكن من تبديل الجياد.

تأخر عن موعد العشاء وهذا امر من الأمور التي يكرهها كثيراً، فعندما دخل في الطريق المؤدي الى المنزل، وعلى جانبيه اشجار البلوط، استرعى انتباهه الفسطاط على بعد مسافة قليلة منه.

قطب حاجبيه وغمره شعور بأن يذهب إلى لندن، ثم قال بينه وبين نفسه: من المؤكد أن تلك الفتاة الغبية المملة والتي اختارتاها لي شقيقتاي كعروس تنتظرني في الداخل.

ففي تلك اللحظات شعر بموجة هائلة من الخوف تغمره من كل ما كان يخشاه من الزواج.

بامكانه حتى أن يتصور وبوضوح كيف سيسأم من ثرثرة تلك الفتاة التي لا خبرة لها بالحياة وملذاتها.

كما يمكنه أيضاً أن يتصور باشمئزاز الابتسامات المزيفة على شفاه اقاربه واصدقائه عندما يدخل مع عروسه إلى هذا المنزل والتي لم تكن من اختياره بالذات، بل لأنها تناسبه فقط بالنسب.

«تناسبني!» قال الدوق لنفسه باحتقار وقرف.

وفكر الآن فقط، وقد تأخر بذلك، كم انه كان غبياً.

لقد كان عليه ان يختار امرأة من عالمه، فهناك الكثيرات من الأرامل ممن قد يوافقن على تحمل المسؤولية كدوقة دون أي عناء.

كما أنها كانت ستسعده دائماً عندما تقيم حفلات

لأصدقائه المقربين، وقد تغض النظر عن تصرفاته التي اعتاد أن يقوم بها.

لكنه بالمقابل، وبدلاً من أن يفكر بالأمر بجديه، ألقى بهذا المشروع على شقيقتيه لتختارا له زوجته.

فهما بالطبع لا تفهمان شيئاً عدا الأمور التقليدية السارية بأن تكون العروس من عائلة جيدة وشابة يمكنها ان تنجب الأبناء الاصحاء.

لكنه تذكر بأنه هو من وضع الشروط في ان تكون شابة جميلة وبريئة، فاتهم نفسه بالغباء لانه فرض مثل هذه الشروط السخيفة واللا منطقية.

لماذا لم يجد لنفسه زوجة مثل البارونة؟

غشيت نظرات الدوق عندما نزل من العربة وصعد الدرجات الرمادية التي فرشت كالمعتاد بالسجاد الأحمر استقبالاً له.

رحب به المايجور دومو مع العديد من الخدم، وقال: «اهلاً بك في منزلك يا سيدي!»

طأطأ الدوق برأسه دون ان يطرح عليه اي سؤال، ثم توجه إلى الطابق العلوي بغرور وكبرياء.

الشعور الذي غمره بالخوف، لم يفارقه خاصة عندما وجد ان القاعة والسلم قد زينا بالأزهار البيضاء.

عندما وصل إلى غرفته التي اعاد تصميمها جده في الوقت الذي اعاد بناء هذا المنزل، شعر بأنفاسه تضيق من رائحة تلك الزهور التي توزعت في كل مكان.

هذه لم تكن آتية من غرفته بالذات، بل من الغرفة المتصلة بغرفته والتي كانت كل دوقة من قبل تستعملها

لزينتها، والتي يفصلها عنها باب كان قد نسي مفتوحاً.

وازداد غضبه بسبب السرير الذي انتقل بالوراثة عبر الأجيال عن ايام شارلز الثاني، فقد كانت زواياه على شكل قلوب ذهبية وأبواق، بينما رسم سقفه بريشة فنان ايطالي مبدع صور افروديت وايريس.

مشى الدوق في غرفته بنفاد صبر وقال لخادمه الخاص بعدم ارتياح: «افتح النوافذ! فرائحة الازهار شديدة وهي تطبق على انفاسي!»

اجاب خادمه الخاص: «انه الزنبق الأبيض يا سيدي! فلقد اعتقدت شقيقتك بأنها تناسب الغرفة الاضافية التي ستستعملها العروس.»

اطبق الدوق شفتيه بغيظ وتمالك اعصابه بشدة كي لا تتفجر مشاعره.

ولم يهدأ إلا بعد ان استحم بمياه باردة، وادرك عندئذ، انه من الخطأ ان يعلم احد بما يشعر به عدا شقيقتيه.

كما وانه ادرك في الوقت نفسه، انه لمن الصعب جداً ان يخفي عن اقربائه انه لم يشاهد الفتاة التي سيتزوجها ولا مرة في حياته، فبات لا يشمئز فقط من فكرة الزواج، بل أيضاً من الفتاة التي وافقت على زواجه على الفور.

انه ولغاية هذه اللحظة لا يفكر بها كامرأة، ولكن كزوجة لا يريدها. واصبحت بنظره نموذجاً للاحتقار، لأنها وافقت على الزواج من أي رجل مهما كانت صفاته، طالما انه سيمنحها لقباً يعززها على مر الايام.

لكن الوقت قد فات الآن على الندم، وقد كان من الغباوة جداً ان يصر على موعد زواجه بعد شهر.

على كل حال، من الواضح ان اية امرأة أخرى عندها كرامة، قد لا توافق على هذه الشروط، خاصة عندما لا تكون له نية حتى في مقابلتها ليرى اذا كانت تناسبه أم لا.

تذكر انه قرأ في رسالة بعثتها له شقيقته، ان عدداً من الأهالي الذين طرقوا بابهم قبل ان يطرقوا باب سمالا قد رفضوه كل الرفض.

لكن اليزابيت اوضحت بلباقة، بأن السبب في رفضهم، هي السرعة في هذا الزواج الذي سيتم بعد شهر فقط.

فقال بصوت عال: «إن هذا الأمر في حالة من الفوضى من بدايته وإلى نهايته.»

وادرك بأنه هو وحده الملام في كل ما حدث، ولكن ذلك لم يحسن من سير الأمور.

وعندما انتهى من ارتداء ملابسه الانيقة، أكد له خادمه الخاص، انه لا يوجد احد في روعته وفخامته بملابس السهرة.

خرج الدوق من الغرفة يفكر بألم، ان هذه الليلة هي الأخيرة من امتلاك حريته.

ورفض كل ما اقترحه عليه اصدقاؤه بتمضية سهرة أخر ليلة من العزوبية قبل ان يتزوج، لأنه لا يجد في هذا الزواج شيئاً ليحتفل به.

وكم تمنى لو انه بعيد عن هذا المكان كي لا يواجه ابتسامات اقربائه الفضولية الذين جاءوا لتهنئته. حتى انه توقع الأسوأ من ذلك، فبعد بضعة ساعات عندما لجأ إلى سريره، ادرك بأنه لم يعط لهذا الزواج تفكيراً اوسع واشمل.

عندما رفع اقرباؤه أكواب عصير الليمون المنعش عاليا

ليشربوا نخبه عند العشاء، لم تكن صادقة ومخلصة من القلب إلى القلب، وحتى الاطراءات اللطيفة التي صدرت عن قريباته، كانت مزيفة.

فكر أيضاً ان من بين الثلاثين شخصاً الذين جلسوا إلى مائدة العشاء، لم يكن بينهم من شعر نحوه بذرة من العاطفة عدا شقيقته اليزابيت.

كان العشاء لذيذاً، لكن الدوق وبسبب ما يعانيه من هذا الزواج السريع، لم يجد ايه لذة فيه.

فعندما جلس إلى مائدة العشاء الطويلة التي اضيئت بشمعدانين وزينت بتحف ثمينة، كان كل ما يشغل رأسه، ان ليلة غد وكل ليلة تليها، ستجلس امرأة غريبة عنه في الطرف المقابل للطاولة والتي سيجبر على ان يعتبرها زوجته.

كما لاحظ ان مزاجه السيء أثر على من يجلس إلى جانبه.

انتقل المركيز ليجلس إلى جانبه عندما انصرف من كانوا بقربه، وقال له: «ارجو ان تكون قد تدبرنا الأمور كما تشاء يا باك، فاليزابيت ومارغريت عملتا المستحيل لإرضائك.»

اجاب الدوق: «اذا احببت ان ترضيني، فانا لا اريد ان اكون هنا في هذه اللحظات.»

تنهد المركيز قبل ان يقول: «اعرف ذلك، ولكن في الوقت نفسه، ارجو ان تكون قد وصلتك اخبار وتصرفات ادموند.»

«لقد وصلتني.»

فتابع المركيز بغضب: «انه يلفق الكذبة تلو الأخرى لأي شخص مستعد لأن يصغي إليه، ولسوء الحظ القليل فقط، هم من لا يعيرونه أي اهتمام.»

اطبق الدوق على شفتيه بتوتر شديد دون ان يرد بكلمة واحدة، فأضاف المركيز بعد لحظات: «لكنني سمعت بالرغم من اقاويله الكاتبة عنك، بانه قلق للغاية. فالدائنون بدأوا يطالبونه بمالهم.»

علق الدوق قائلاً: «كان عليه ان يتوقع حدوث مثل هذا الأمر.»

وافق المركيز وقال: «بالطبع، لكن هذا الوضع لا يعجبني، فالرجال اليائسين يقومون باعمال يائسة كما تعلم يا باك.»

فقال الدوق: «لا اعتقد انه قد يقوم بعمل اشد بؤساً من اقدامه على الزواج من امرأة مثل لوتي!»

تنهد المركيز من جديد ثم قال: «آمل ان تكون على حق، ولكن لا ادري لماذا اشعر بعدم الطمانينة من هذا كله.»

فسأله الدوق بقسوة: «اذاً، ماذا تقول بالذي اشعر انا به بالذات؟»

لم يجب المركيز الذي كان يعرف تماماً ما يشعر به الدوق.

انتهت السهرة باكراً لحسن حظه، وذلك لأن اكثرية العائلة من المتقدمين في السن، وعند بعضهم الأخر مسافة كبيرة ليقطعوها بعد الزفاف غداً.

فلقد نبهتهم المركيزة، بأنه لا يمكنهم ان يبقوا في المنزل بعد الزفاف، لأن الدوق سيمضي بضعة أيام فيه.

اوهمتهم بذلك، لأنها لم تكن تعلم بعد بمشاريع الدوق بعد الزفاف.

ولقد كتبت له رسالتين بهذا الخصوص لتعلم منه ما الذي قد يقوم به لشهر العسل، لكنه لم يجبها على الرسالتين، واملت بأن يكون قد اوكل سكرتيره السيد دلتون بأن يقوم بالتحضيرات اللازمة.

اما الذي كانت متأكدة منه كل التأكيد، انه سيبقى في مقاطعة باكهرست في الليلة الأولى لزفافه.

كما انه تمنت ان تتكلم مع باك قبل موعد حفلة الزفاف، لكن وبما انه تأخر كثيراً، شعرت بالحيرة من ان يكون كل شيء يجري حسب ما يجب.

وكل ما كان بامكانها ان تفعله، هو ان تتمنى ألا تخاف سمالا عندما تشاهد تلك التعابير القاسية التي على وجهه والتي كان يتلبس بها حول مائدة الطعام.

فمع كل زيارة إلى منزل سمالا، كانت تزداد حباً واعجاباً بها، وتزداد أيضاً ثقتها بأنها ستكون الزوجة المثالية التي يحلم بها باك.

لكن وفي نفس الوقت، لم يستطع اصدقاؤها الا وان يخبروها كم ان البارونة فاتنة وتسلب الألباب، وبأن باك تناول معها طعام الغداء قبل ان يحين موعد الزفاف.

فسألت اليزابيث زوجها: «لماذا دخلت هذه المرأة حياة باك في هذه الفترة؟»

«انها جذابة جداً!»

«ان كل من عرفهن باك كن كذلك، لكن يبدو عليها انها اسوأ من الأخريات.»

فقال المركيز ببطء: «اذا كنت تعنين بأنها ذكية اكثر من

غيرها، فدعيني اقول لك، ان هذا ما كان يفضله باك دائماً، كما انها من النوع الخطر.»

اجابت اليزابيت: «من المؤكد انها خطيرة، لكنني احب باك واعرف بأنه يعجبك انت أيضاً يا آرثر، ونريده ان يكون سعيداً في زواجه، لكن ما هي الفرص المتاحة امام سمالا لتنافس امرأة مثل البارونة المحنكة؟»

حرك المركيز كتفيه بعدم معرفته لأنه لا يملك جواباً على مثل هذا السؤال، وفكرت اليزابيت، انه ما من شيء لم تفعله لغاية الآن في تقديم المساعدة والخدمة لباك.

كان يوم الزفاف، يوماً مشرقاً ورائعاً، حتى ان القيمون على الحديقة، جعلوها منذ ان اعلن زفاف الدوق، حديقة مميزة تتألق بازهارها وبالنباتات من مختلف انحاء العالم.

ففكرت المركيزة حين لمست جمال الحديقة وروعتها: «انها تشبه جمال سمالا.»

ولأن القرويين كانوا سعداء بزواج الدوق، وهذا يعني بأنه ستقام حفلة لهم تضيء الليل بالألعاب النارية والموسيقى، فقد زينوا اكواخهم بالشرائط الملونة ونصبوا اقواساً لتمر من تحتها العروس إلى منزل الدوق.

ان الايرل وسمالا اللذان عاشا في عزلة عن العالم بسبب سوء الحالة المادية لديهما، لم يعرفا مدى اعجاب الاهالي والاحترام الشديد لهما.

ولكم كانت دهشة الايرل شديدة لو علم ان القرويين يجدونه وسيماً ويعتقدونه شجاعاً بالرغم من تلك الصعوبات الضيقة التي يعاني منها، حتى انهم كانوا يشفقون عليه ولكن بكرامة واحترام.

فقد كان المزارعون يقولون: «انه رجل عظيم، فهو بكامل عنفوانه وكبريائه، بينما لا تجد في جيبه قرشاً واحداً، ولو وجد تلك القرش، لا مانع عنده في ان يشاركه مع المحتاجين.»

ولأنهم كانوا يأسفون على حاله، قاموا عنه ببعض الأمور البسيطة في عقاره كي يتوفر عليه مصاريف أخرى من الاعطال، وحتى لمنع الفياضانات التي قد تهلك كاهله اكثر.

وبما ان سمالا كانت تشبه والدتها بطباعها، احبوها هي الأخرى.

لم يكن للكونتيسة شيئاً تمنحه لهم، سوى اللطف والمحبة والتفهم.

فمع ان اكواخهم التي استأجروها من الايرل، ترشح ويعرفون انه لا فائدة من سؤاله لاصلاحها، فقد كانوا يجدونها دائماً إلى جانبهم حين يصيبهم المرض، فتستمع إلى مشاكلهم ولرفعة اخلاقها ينسون السقوف المشققة التي بحاجة إلى ترميم والتي لا يمكن ان تتوفر لهم سوى في مقاطعة الدوق.

لذا فبعد قرار زواج الدوق من سمالا بالذات، عمت البهجة والفرحة في المقاطعتين، مقاطعة كنوين ومقاطعة باكهرست.

وقد يعجب الدوق لو عرف كم اختياره لسمالا قد منحه السمعة الطيبة والفخر.

فقد قال احد التجار لصديقه: «عنده نظرة ثاقبة في أمور الجياد، وها هو الآن يجيد في اختيار الزوجة المناسبة له.»

كما ان زوجتي كل من هذين الرجلين قالتا لبعضهما، ان سمالا هي العروس الاجمل حتى ولو ارتدت فستانها القطني القديم.

وبما ان لاشيء يمكن اخفاؤه في مجتمع كهذا ولا في أي مجتمع آخر، عرف الجميع بأن ثوب زفاف سمالا وجهازها، تلقتهما هدية من المركيزة شقيقة العريس.

عندما دخلت العربة الرائعة التي تقودها اربعة جياد أصيلة تخص الدوق، وقف القرويون على جانبي الطريق يلوحون لها بمناديلهم.

فبعد ان شاهدوا دخول العربة، اسرعوا إلى مشاهدتها مرة أخرى من مدخل آخر.

تابعت العربة تقدمها عبر البوابة الرئيسية، إلى ان توقفت امام باب منزل الدوق الضخم، وعندما ساعد احدهم سمالا لتخرج من العربة، علت الهتافات ابتهاجاً لثوب الزفاف الذي ترتديه.

لقد اختارته المركيزة بتأنٍ، وكان رائعاً مثلما تحلم به أيه فتاة في احلامها.

شدت سمالا على ذراع والدها، وقد شعرت بأنها تعيش حلماً من الاحلام وما يحدث لا يمكن ان يكون حقيقي.

لكن ما يحدث هي الحقيقة بعينها، فلقد تركت منزل والدها وها هي الآن تصعد الدرجات القليلة إلى المنزل الذي ستجد فيه الزوج الذي لا تعرفه ويريد ان يتزوج منها.

شعرت عندما تصاعدت التهاني التي انهالت عليها من كل

حدب وصوب بأنها تتقدم اكثر من الدوق الذي لم تسنح لها الفرصة بالتعرف إليه الا في يوم الزفاف.

وصلت سمالا اخيراً إلى قربه، ونظرت إليه من تحت الحجاب، فشعرت على الفور بأنه رجل يملأ المنزل بأسره، حتى انها لم تعد ترى احداً غيره.

انتهت مراسيم الزفاف ووقف الدوق وسمالا ليتقبلا التهاني في القاعة الكبرى للمنزل، وقد خيل إليه ان ما يحدث أمر لا نهاية له.

كان الجميع يعرف الدوق، اما سمالا فلم يسمعوا بها في حياتهم.

«تهانينا القلبية لك يا باك، ونتمنى لك كل السعادة!»

«يسعدنا التعرف اليك، ونأمل ان نراك كثيراً مع زوجك!»

«نأمل زوجي وانا ان تلبيا دعوتنا بعد ان تعودان من شهر العسل!»

«تمنياتنا لكما بالحظ والسعادة!»

هذا جزء بسيط مما قاله المهنئون، فوجدت سمالا نفسها تكرر بصورة تلقائية كلمة شكراً، كما حاولت ان تركز نظرها على كل من كان يهنئها لربما تتعرف على احد. لكن ذلك كان صعباً.

ثم اخيراً وبعد ان تعبت سمالا من الوقوف وبعد ان وقفت مع الدوق لأكثر من ساعتين تتقبل التهاني، وجدته يبتعد عنها فتساءلت اذا كان هذا يعني ان تلحق به أو لا.

ثم جاءها المركيز ليناولها كوباً من الشراب المنعش قائلاً: «لا بد وانك تعبة الآن، ولكنك كنت رائعة وقد اعجبت الجميع.»

اجابت سمالا: «شكراً لك.»

تساءلت إلى اين ذهب الدوق، فنظرت بين الحشد الكبير لعلها تعثر عليه لانه اطول قامة من الجميع.

كان من المستحيل ان يتكلما مع بعضهما بعد ان انتهى الزفاف وبدأ بتقبل التهاني، فقد ارشدتهما المركيزة إلى صالة كبيرة وقالت لهما ان يقفا عند بابها وامام المزهريات الضخمة التي زينت بالزنبق الأبيض.

وقالت لسمالا: «ستبدين في غاية الجمال يا عزيزتي، فلقد ادهشت الفتيات في مثل سنك لورعة وجمال ثوبك لأنهن يدركن بأنهن لن يحصلن على ثوب مماثل له يوم زفافهن.»

ضحكت سمالا بعذوبة، وحولت نظرها إلى الدوق لترى اذا كان يشاركها هذه الضحكة، لكنها وجدته ينظر إلى المركيز ويتحدث معه.

بعد ذلك اخذ الضيوف يتوافدون ولم يكن هناك من مجال لفعل أي شيء سوى ان يردا على تمنياتهم الطيبة لهما بأدب ولطف. اما الآن وبينما كانت تفتش بنظرها على الدوق، احاطها والدها بذراعه وقبلتها مورين بسعادة، ثم قالت: «لقد كان زفافاً رائعاً، وكنت تبدين كالأميرة في احدى القصص الخيالية!»

ابتسمت سمالا بسعادة لأن هذا ما كانت تريد ان تسمعه، ثم اضافت مورين بصوت منخفض: «انني ادعو لك يا عزيزتي بأن تكوني سعيدة كما انا سعيدة.»

ففي اليوم ما قبل الامس، وفي ساعة مبكرة من الصباح، حضرت سمالا زفاف والدها لمورين. وعلى

عكس زفافها كان احتفالاً هادئاً وخاصاً، لأن الايرل شعر انه من المحرج جداً ان يتزوج هو قبل ابنته، وكان قد وافق على الزواج بعد ان فعلت سمالا ومورين قصارى جهدهما لا قناعه.

فقد قالت له سمالا: «انني اريدك ان تتزوج يا والدي، لأنني عندما اغادر هذا المنزل، وتعود مورين إلى منزلها، ستجد نفسك وحيداً وهذا أمر سيقلقني كثيراً، فارجوك ان تتزوج بأسرع ما يمكن.»

وبفضل حماس وحث سمالا، وافق الايرل على طلبها وتدبير أمر زواجه من مورين بطريقة سرية. وعندما ادخل الايرل الخاتم في اصبعها، رأت سمالا الحب في عيني عروسه وعرفت بأنها ستحسن رعايته، وستنسيه كل شقائه وتعاسته وفقره الذي كان يعاني منه منذ فترة طويلة.

فقالت مورين: «ساكون متيقظة جداً كي لا يشعر والدك بأنني سادفع كل ديونه من مالي، لكنني اريد منه ان يعود إلى مكانته الاجتماعية في الريف، لأن الكثيرين من الناس اخبروني كم هم آسفون للحال الذي اصبح فيه، ويطالبون بأن يعود مرشدهم الذي يعودون إليه في مشاكلهم.»

اجابت سمالا بسعادة: «هذا ما اردت ان اسمعه منك، فوالدي رجل ذكي وماهر! ولقد بات مؤخراً لا يستعمل هذا الذكاء الا في الأمور التي لا معنى لها.»

وعدتها مورين قائلة: «سيتغير كل شيء من الآن فصاعداً، لكنني في الوقت نفسه، لا احتمل ان يفكر

بأنني ادفعه دفعاً للقيام بأشياء لا يريد ان يقوم بها.»

قالت سمالا: «انه يحبك، لذا فسيكون من السهل عليك ان تقنعيه بالقيام بالأمور الهامة.»

قبلتها مورين وقالت: «انك حكيمة وحساسة، وبما انني اشعر بأنني ادين لك بسعادتي هذه، ما اتمناه لك، هو ان تنالي نفس سعادتي هذه.»

لم تجب سمالا، وكان على وجهها تعبيراً جعل من مورين ان تنتبه لأمر ما، وعندما اصبحت مع الايرل بمفردهما، قالت بتردد: «انني قلقة بشأن سمالا، لأنها ما زالت صغيرة السن، ولا تعرف الكثير عن العالم الخارجي لمنزلك الاسطوري.»

فعلق الايرل قائلاً: «ستتعلم كل شيء بسرعة.»

اجابت مورين: «هذا ما يجعلني في غاية القلق.»

لكنها لم توضح شكوكها اكثر بشأن سمالا، لأنها شعرت بأنه هو أيضاً عاش في عالم مختلف جداً عن عالم الدوق الوهاج.

وقررت أن تجعل من منزله في الداخل ما يضاهي جماله من الخارج، ولن تسمح باستمرار الفوضى فيه وستجعله حقاً كما كانت تراه سمالا بعين الخيال احد القصور الخيالية، لأنه كان منزلاً تاريخياً وعريقاً ومن المؤسف والحسرة ان يؤول إلى ما إليه الآن.

بينما شعرت سمالا بأنها أرهقت تماماً من التكرار ذاته في المصافحة والتهنئة، وبأنفاسها تضيق من شدة الحر، شعر الدوق بالغضب الشديد يغلي في صدره لدرجة انه لم يعد قادر على التحمل اكثر.

فكل الذي أوضحه سابقاً عن كرهه من الزواج يبدو الآن قد تضخم اكثر، مما سبب له صداعاً اليماً في رأسه.

كره اقرباءه وكره اصدقاءه، وتأكد ان كل ما قالوه له لم يكن سوى كلام تقليدي تتفوه به الشفاه وليست القلوب.

لقد تأكد أيضاً وبشدة، ان المرأة التي تقف إلى جانبه الآن كانت زوجته.

لم ينظر اليها خلال مراسيم الزفاف، لأنه لم يكن يرغب بذلك، وبعد ان وقعا اسميهما في دفتر السجلات، لم يكن هو الذي ازاح الحجاب عن رأسها كما هي التقاليد المعروفة، ولكن شقيقته اليزابيت هي التي فعلت ذلك، ولم يكتف بذلك فقط، بل اشاح بوجهه عنها.

كما وانه لم ينظر اليها عندما سلمه اياها والدها، وبينما مشى معها إلى الداخل، تخيل له انه يسمع الضحكات المكبوتة شماتة من بين المدعوين، وقال لنفسه انني كمن يأخذونه إلى مقصلة الاعدام.

لقد تخلى عن حريته ببساطة ليمنع لوتي من ان تعتمر تاج النبلاء، لكنه دفع الثمن غالياً.

وبسبب عدم احتماله اكثر، ترك سمالا التي وقفت إلى جانبه وخرج من القاعة بقصد الصعود إلى غرفته.

التقى بالسيد دلتون في القاعة الاخرى الذي قال له «كنت على وشك ان اذهب اليك يا سيدي.»

سأله الدوق: «ماذا هناك؟»

«لأبلغك بأن الجواد الذي اشتريته من تاترسول منذ ثلاثة ايام، وصل الآن.»

فقال الدوق: «لم اكن اتوقع حضوره قبل يوم غد.»

ابتسم السيد دلتون قائلاً: «اعتقد انه يسعدهم احضاره لك قبل الموعد، وكما علمت، لقد بدأ بتحطيم الحجيرة منذ الآن!»

اجاب الدوق: «لقد قيل لي بانه متوحش جداً. وفي الواقع، كنت الوحيد الذي يرغب في شرائه.»

فقال السيد دلتون بنبرة مريبة: «آمل ان لا يكون خطراً!»

اردف الدوق: «بل ارجو ان يكون!»

ثم خرج من باب المنزل وإلى الاسطبل دون ان يضيف كلمة واحدة.»

تنهد السيد دلتون وهو يراه مبتعداً. فلقد كان يعرف اكثر من أي شخص آخر بالذي كان يشعر به في هذه اللحظات، ويمكنه ان يدرك لماذا رضي بالجواد المتوحش اكثر بكثير من الجواد الهادىء والمروّض.»

لكنه كان يعرف في الوقت نفسه، انه على الدوق ان لا يترك ضيوفه في هذا الوقت، وعلى الأخص عروسه.

وكأنما هذا ضمن نطاق عمله وواجباته، اسرع بالدخول إلى القاعة لئلا احتاج إليه احد ليبرر اختفاءه المفاجيء.

• • •

عندما اقترب الدوق من الاسطبل، تمكن من ان يسمع جواده الجديد يثير البلبلة في احدى الحجيرات. وقد احاط

به جمهور لا بأس به من صبيان الاسطبل ورئيس السائسين عنده، وثلاثة رجال غرباء ربما كانوا قد وجدوا تسلية اكبر في رؤية مثل هذا الجواد اكثر من قالب الحلوى الذي لم يقطع بعد والذي يتألف من خمس طبقات.

اسرع رئيس السائسين إلى الدوق حالما ظهر امامه وقال: «انه حيوان جيد يا سيدي، لكنني اعتقد باننا سنواجه المشاكل معه.»

اجاب الدوق برضى تام: «اعتقدت هذا ايضاً.»

ثم نظر إلى الحجيرة حيث كان الجواد يحاول جهده في التهام العلف كله وقال: «انه يتصرف بهذا الشكل بسبب تعبه الشديد خلال هذه الرحلة الطويلة.»

«لقد اتعب الرجال كثيراً عندما حاولوا ادخاله إلى هذه الحجيرة.»

فقال الدوق: «ما يحتاج إليه، هو التمارين، هيا اسرجوه لي!»

«الآن يا سيدي؟» سأل رئيس السائسين ذلك، بينما اسرع اربعة من صبيان الاسطبل ليضعوا السرج على الجواد والذي كتب عليه اسمه: رافس المتوحش.

قفز الدوق فوقه، فبدأ الجواد يبدي استياءه وقد شعر بانه سينتقل إلى اسطبل آخر.

لكن الدوق استمتع بكل لحظة من ذلك، شعر لأول مرة منذ عدة ايام بأن الغضب الذي كان يقبض على صدره، يبتعد عنه ونسي مشاكله ليفكر بهذا الجواد الذي يظهر قوة تضاهي قوته.

استغرق عشر دقائق من الوقت كي يخرج برافس

المتوحش من الاسطبل إلى الطريق العام ثم وبحذر إلى الجسر الذي يقطع البحيرة.

بعدئذ، وكأنما بدأ الجواد يشعر بأنه سيتمتع بهذه النزهة، تابع العدو بخفة باتجاه الحقول التي احيطت بالاشجار على جوانبها.

اعتقد الدوق انه من الأفضل ان يأخذه إلى الحقول المنبسطة، حيث يمكنه ان يهدىء من اضطراب الجواد.

لكنه كان يدرك أيضاً انه من الخطورة ان يقطع المسافة ما بين مقاطعته الوعرة المسلك إلى الحقول المنبسطة بأقصى سرعة.

لذا تمسك برسن الجواد جيداً بما انه لا يحمل سوطاً يخفف عنه وقع الخطر نتيجة لذلك.

كان يعرف من خبراته الطويلة والمتواصلة مع الجياد، بأن المسألة مسألة وقت لا غير، وقبل ان يتعرف رافس المتوحش إليه اكثر ويعرف بأنه معلمه.

لكنه وبالرغم من معاناته مع هذا الجواد، كان يشعر بالفخر والاعتزاز بنفسه، لأنه يعرف بل ويؤكد انه سيلين ويهدأ في وقت قصير.

وحافظ على سيطرته التامة على الجواد بقوة وعناد وهما يقتربان اكثر فاكثر من تلك الحقول التي سيتمكن فيها رافس المتوحش من العدو بخفة ونشاط.

بعد ذلك، وعندما كان يجتاز آخر شجرة بلوط ضخمة في مقاطعته، نهض غزال فجأة قرب جزعها ليصطدم بقدم الجواد.

اخذ الجواد رأساً بالقفز عالياً وهو يصهل بجزع، وبما انه كان كبير الحجم، جعل رأس الدوق يصطدم بأحدى الأغصان الضخمة.

كانت ردة الفعل الأولى للدوق بأنه افلت يديه من زمام الرسن، ثم وبما ان الجواد لم يهدأ، اسقطه عن ظهره فارتطم صدره بالأرض الوعرة.

وشعر في الحال بظلام دامس داهمه إلى ان فقد وعيه.

الفصل الخامس

استعاد الدوق وعيه بعد غيبوبة طويلة، ولكنه لم يكن قادراً على التفكير والتركيز ليعرف اين هو أو ما الذي حدث له، فكل ما حوله قد غرق بالظلام، ثم وعندما حاول ان يتحرك، شعر بألم حاد في صدره وعاودته الغيبوبة من جديد.

خيل للدوق انه قد مر وقت طويل عليه وهو على هذه الحالة عندما تنبه إلى نفسه، وبأن ثمة شيء قد حصل والذي لا يتذكر منه شيئاً.

تحرك ببطء شديد، فشعر عند ذلك بوجود شخص إلى جانبه وقد لامس جبينه بيده الباردة، لكن المريحة.

«انتي... اشعر... بالعطش...»

لم يكن متأكداً من انه قال هذه الكلمات أو فكر بها ابداً، وعاد يشعر بشيء يتحرك إلى جانبه واسند رأسه بذراعه، ثم قرب الكوب من شفتيه، شرب بنهم لأن فمه كان جافاً جداً، اما الذي شربه فقد كان بارداً ولذيذاً.

ثم سمع صوتاً لطيفاً يقول له: «اخلد إلى النوم، فسيكون كل شيء على مايرام، كما وانك ستشعر بالتحسن صباح الغد.»

اراد ان يسأل ماذا حدث، ولكنه كان متعباً جداً، وعاد يشعر باليد الباردة فوق جبينه تدلكه بلطف إلى ان غرق في نوم عميق.

استفاق الدوق في صباح اليوم التالي ليجد ان الشمس قد غمرته بأشعتها، فاسدلت الستائر على الفور وكأنه هو الذي أراد وطلب ذلك.

عند ذلك فقط، ادرك ان هناك رجلاً يقف إلى جانبه، وعندما امسك برسغه، ادرك الدوق بأنه من دون شك الطبيب.

سأل الدوق بصوت ضعيف وبطيء: «ما الذي حدث؟»

أجاب الطبيب: «لقد تعرضت إلى حادث يا سيدي، لكن اطمئن، فليس هناك من خطر في ذلك، انه ارتجاج بسيط في المخ وجرح في المكان الذي ركلك فيه الحصان.»

تذكر الدوق كل شيء وكيف تراجع رافس المتوحش إلى الوراء وبدأ بالقفز.

«لقد... اصطدم... رأسي.» تكلم بوهن ومن يسمعه يتصور بانه يكلم نفسه.

فقال الطبيب: «انك لم تصدمه فقط، بل سقطت أيضاً عليه، وبما ان الجواد ركلك، ستشعر بالألم الشديد في صدرك، لكن اريد ان اطمئنك يا سيدي بأنه لا يوجد كسور، وكل ما عليك فعله الآن، هو ان ترتاح في السرير إلى ان تستعيد عافيتك.»

حاول الدوق ان يجادله بأن آخر ما يريد ان يفعله هو البقاء في السرير، لكنه شعر من شدة تعبه بأنه سيبذل مجهوداً كبيراً لو فعل ذلك.

اغمض عينيه بينما كان الطبيب يشير بتعليماته، ولكنه لم يصغ لأية كلمة من الذي كان يقوله.

* * *

كان في الغرفة شمعة واحدة مضيئة، فاعتقد انه بمفرده،

إلى ان انتبه ان هناك شخصاً ينام على الصوفا في زاوية الغرفة.

فكر في البداية انه لا بد وانه يتخيل الاشياء التي لا وجود لها، لأنه من غير المحتمل ان ينام احد في غرفته بالذات.

ثم تبين له وعلى ضوء الشمعة، وجهاً شاحباً شعره اشقر، يسنده إلى الوسادة المخملية.

احتار بأمره في من تكون صاحبته، التي تحركت بعد ان شعرت بنظراته عليها، ثم اخذت تنظر إليه. وكانت دهشته اكبر، عندما رآها تنهض من مكانها وتتوجه إليه، فعندما اقتربت منه، اصبح يراها بوضوح، اعتقدها بأنها ليست سوى فتاة صغيرة تنظر إليه بعينيها المتسائلتين، لكنها ابتسمت له فلاحظ على الفور الغمازتين على جانبي فمها.

فقالت: «لقد استيقظت! فهل تريد شراباً؟»

سألها الدوق في محاولة منه ليعرف ما الذي يجري: «من... انت؟»

ابتسمت سمالا من جديد واجابت: «أرى انك تجد صعوبة لتتذكر، ولكن دعني انعش ذاكرتك. فأنا زوجتك!»

اعتقد الدوق الآن، انه من المؤكد كان يحلم، ثم وكان غمامة سوداء ازيحت عن عينيه، فتذكر كل فصول حكايته الأليمة.

الزفاف، غضبه منه، الجو الحار عند تقبل التهاني، إلى تلك اللحظة التي لم يعد بامكانه الوقوف اكثر وذهابه إلى الاسطبل حيث رافس المتوحش.

لكنه لم يتمكن من ان يتذكر شيئاً ابعد من ذلك، فسأل: «الجواد... هل هو... بخير؟»

أجابت سمالا: «انه بخير! لكن الجميع يخشى جانبه، كما انه يعرف ذلك! لقد قلت له ان عليه أن يحسن التصرف عندما تمتطيه مرة ثانية.»

وبعد ان انتهت من كلامها، رفعت الكوب إلى شفتي الدوق، فشعر مرة أخرى انه يشرب شيئاً منعشاً ولذيذاً ابعد الجفاف عن حلقه.

فسألها بعد ان ابعدت الكوب عنه: «متى... يمكنني... ان انهض... من هذا السرير؟»

اجابت سمالا: «لم يؤكد الطبيب ذلك، ولكنني اعتقد بما انك رياضي، ستتحسن صحتك في وقت قصير اكثر مما يتوقعه، فالأطباء دائماً يضخمون الأمور مثل المربيات اللواتي لا يتوقفن عن التوجيهات.»

اراد الدوق ان يضحك من كلامها، لكنه كان يعلم انه لو فعل ذلك سيؤلم صدره، انما قال: «أرى بأنه يجب ان نتعرف على بعضنا اكثر، لكن اريد ان اسألك أولاً، لماذا تقومين برعايتي بنفسك، قد يكون الأمر اسهل لو جيء بأية ممرضة؟»

أجابت سمالا: «على العكس، فالممرضات كما تعلم، غير متوفرات في هذه القرية، وهناك واحدة فقط، كبيرة في السن، وقد يغلب عليها النوم اكثر منك وانت في هذه الحالة!»

كانت عيناها تلمعان وهي تتكلم، ووجد الدوق نفسه ينظر إلى غمازتيها، ثم قال: «اذاً، يجب ان اشكرك لأنك

خلصتني منها، لكنني اشعر في الوقت نفسه، بأنني اثقل عليك.»

أجابت سمالا: «لا ابداً، فخادمك الخاص يقوم على رعايتك طوال اليوم، كما وانني قمت على رعاية والدي عندما وقع عن صهوة الجواد وكسر قدمه، ومرة أخرى عندما وقع عن السلم واصابه ارتجاج في المخ.»

فعلق الدوق قائلاً: «لكنني اعتقد انها ليست بالطريقة المستحبة لتبدأي فيها حياتك الزوجية.»

قالت سمالا: «يسعدني ان اكون هنا إلى جانبك، فعندما كنت غائباً عن الوعي، وجدتك تشبه تلك اللوحة لصورة احد جدودك.»

فكر الدوق للحظات قليلة قبل ان يقول: «اعتقد انك تعنين السيد هارولد باكهرست الفارس المغوار.»

أجابت سمالا: «بالطبع، هذا ما اعتقدته عندما شاهدتك أول مرة.»

فسألها الدوق بدهشة: «هل تريدين ان تقولي بأننا التقينا قبل الآن؟»

نفت سمالا بحركة من رأسها وقالت: «لا، اننا لم نلتق يوماً، لكنني عندما رأيتك اعتقدت...»

توقفت مستدركة ثم تابعت: «يجب ان ادعك ترتاح، سأخبرك بكل شيء في وقت آخر، فلقد اصر الطبيب كثيراً بأن لا تجهد نفسك.»

تذمر الدوق بنفاد صبر: «لقد سئمت الفراش، ويسعدني ان اسمع منك كل شيء، فإذا لم تكملي كلامك، فلن يغمض لي جفن لكثرة التفكير.»

ضحكت سمالا بعذوبة، فتخيل الدوق بأنه يسمع زغردة العصافير.

ثم قالت: «انك الآن تحرجني، لكن اذا كنت ستعدني بأنك ستنام، سأخبرك بأنني رأيتك لأول مرة منذ ثماني سنوات مضت، تمتطي جوادك في احدى السباقات.»

لاحظت الاهتمام في عيني الدوق فتابعت قائلة: «كنت تمتطي جواداً رائعاً اسود اللون، وكنت في الطليعة. فراقبتك باعجاب لأنك بدوت حقاً فارساً مغواراً، وبقيت في مخيلتي على هذه الصورة منذ ذلك الوقت.»

لم يخطىء الدوق نبرة الصدق في صوتها، ولا بريق عينيها من ضوء الشمعة.

ففهم، بالرغم من غرابة الأمر، ان ما شاهدته كان يعني لها الكثير.

ثم قالت بنبرة مختلفة تماماً: «والآن، عليك ان تحسن التصرف وان تنام كما وعدتني، والا سيغضب الطبيب مني كثيراً لأنني اتعبتك وقد يصر عند ذلك في طلب ممرضة القرية لك بدلاً مني.»

لم يستطع الدوق ان يكبت ضحكته، لكنه وعندما شعر بالألم في صدره، احكم السيطرة على نفسه وتوقف عن الضحك.

ثم شعر فجأة بالتعب الشديد، لكن سمالا اخبرته شيئاً ليفكر به مما قد ينسيه تعبه.

«عمت مساء.» قال ذلك واغمض عينيه وهو يشعر بيدها تلامس جبينه برقة.

جلس الدوق في سريره وهو يشعر بانزعاج شديد،

فرأسه الذي اصطدم بغصن الشجرة، مازال يؤلمه. كما ان الضربة التي اصابته في صدره من الجواد، جعلت تحركاته صعبة، وكلما حاول ان يتحرك، شعر بالام مبرحة لا تحتمل.

لقد عاده الطبيب في الصباح الباكر ولم يصف له سوى الراحة والهدوء، واصر على ألا ينهض من الفراش قبل اسبوع على الاقل.

فبعد ان ساعده خادمه الخاص بالاستحمام وبحلق ذقنه، وبعد ان بدل له شراشف السرير واغطيته بأخرى نظيفة، شعر انه من المذلة والعار ان يبقى في السرير وكأنه طفل، حتى انه قرر بأن يقوى على آلامه وأوجاعه كي يتمكن من القيام من السرير بأسرع ما يمكن.

ثم قال لخادمه الخاص بعزم: «سأقوم من السرير في الغد.»

أجابه ياتس: «سنرى ما قد تقول سيدتي في ذلك.»

حدق الدوق به بدهشة تامة، وكأنه يصعب عليه ان يصدق ما يسمعه من ياتس بالذات الذي ومن بين كل الناس لا يلبي أية أوامر عدا أوامر الدوق.

فقال الدوق بحدة: «سأفعل ما يطيب لي فعله، احضر لي الجريدة!»

«لقد قال الطبيب يا سيدي، انه من الافضل ان لا تجهد نظرك وتتعبه والذي قد يكون تضرر من آثار الارتجاج في المخ. ستأتي سيدتي اليك حالا، وقد قالت لي انه حالما تكون مستعداً، ستقرأ لك كل شيء تريده من الجريدة.»

ولأن ياتس ادرك من ان سيده سيناقشه بذلك، لم يضف شيئاً، بل انسحب من الغرفة بهدوء واقفل الباب وراءه.

صعق الدوق من هذا الكلام، وكاد ان ينتفض بشدة ويرمي برأسه على الوسادة من سخطه. لكنه تذكر ان مثل هذا الأمر قد يزيد من آلامه فتراجع كابتاً غيظه وحقده.

وبينما كان يتساءل فيما لو يقرع الجرس لياتس ليوجه اليه تعليماته، فتح الباب فجأة ودخلت منه سمالا.

انه لم يرها منذ الليلة السابقة التي اعتقدها في البداية بانها فتاة صغيرة.

كانت نحيفة وممشوقة القوام، ولم ينتبه الا بعد لحظات مرت، لأناقة الثوب الذي ترتديه والذي يجعله يتراجع عن اعتقاده بكونها صغيرة السن.

لكن وبالرغم من قوامها الممشوق، كان على وجهها براءة الاطفال وكأنها طفل صغير! فبانعكاس اشعة الشمس على شعرها، بدا يشع بنور ذهبي متالق مع عينيها الزرقاوين.

دخلت وهي تحمل بيديها مزهرية فيها ازهاراً بيضاء نادرة والتي يتغير لونها إلى لون زهري مع الوقت.

ثم وبعدما اقتربت من السرير، نظرت إليه مبتسمة. فلفتت انتباهه من جديد تلك الغمازتين اللتين حول فمها. فقالت بنبرة عذبة: «انظر ماذا احضرت لك. لقد قال لي مسؤول حدائقك، بانك انتظرت لسنتين كاملتين نمو هذه الأزهار. فمن الواجب اكثر ان تكون في غرفتك أولاً لتنشلك من ازمتك ولتنعش نفسك القلقة.»

نظر الدوق إلى المزهرية التي تحملها بين يديها ثم قال: «انها حقاً بديعة كما اعتقدتها قد تكون.»

«اين وجدتها؟»

«في دراجيلينغ، عندما زرت الهند.»

هتفت سمالا بدهشة: «هل زرت الهند حقاً؟ اخبرني عنها، لأنها بلاد لطالما حلمت بزيارتها كما انني قرأت العديد من الكتب عنها، لكن الأمر لن يكون مماثلاً لو انني تمكنت من زيارتها.»

دهش الدوق، لأنه وبالرغم من رحلاته العديدة في حياته، لم يجد من بين الصديقات اللواتي عرفهن واحدة تهتم بسماع مغامراته فيها.

فنظر إلى سمالا بتأمل وهي تضع المزهرية على الطاولة التي إلى جانب سريره، ثم سمعها تقول بنبرة مختلفة: «ارجو المعذرة، كان ينبغي علي ان اسالك أولاً كيف تشعر اليوم.»

قطب الدوق حاجبيه وقال: «لن اسمح لياتس ان يأخذ الأوامر منك بشأني، وسأقوم من السرير متى يحلو لي، وذلك سيكون من دون شك يوم الغد.»

توقع من سمالا ان تخجل أو ان تشعر بالتوبيخ من هذا الكلام، لكنها ومقابل ذلك، قالت بلطف: «أرجوك، ارجوك كن عاقلاً، هناك اشياء كثيرة اريدك ان تريني اياها، فإذا استغرقت وقتاً طويلاً لكي تتعافى لأنك قمت من الفراش بسرعة، سنجد أنفسنا محبطين وسنصاب بخيبة امل.»

نظر الدوق إليها بدهشة، وعندما رأى التوسل في

عينيها، ادرك مدى اخلاصها وصدقها، وتذكر كيف كان في نيته ان يغادر إلى لندن بعد الزفاف مباشرة ويتركها وحيدة.

ولقد قال لنفسه، بما ان ذلك اصبح صعباً الآن بعد الذي جرى له، لماذا لا يحاول ان يسعى إلى الافضل بعد ان حكمت عليه الظروف لبقائه في المنزل، حتى ولو مع زوجة لا يريدها. وكأنها ادركت بما كان يفكر، قالت له: «انني حقيقة لا احاول ان اوقفك عن القيام بأي شيء، كما انني اعرف انه لا يمكنني ذلك، انما لقد كان الجميع منشغل البال بشأنك، وكنت ارجو وادعو لك بالصحة والعافية... والشفاء العاجل.»

فسألها الدوق: «هل يهم ذلك كثيراً؟»

«بالطبع يهم!»

ثم تنهدت وهي تنظر حواليها متابعة: «لا ادري لماذا فكرت مرة لو كانت هذه الأشياء التي تحيط بك مناسبة تماماً لك.»

سألها الدوق بفضول: «ماذا تعنين بهذا؟»

«هذا المنزل، الاثاث في داخله، جيادك، الاشخاص الذين لا يخدمونك فقط، بل يحترمونك ويحبونك، كل ذلك يكوّن لي الصورة التي كونتها عنك كفارس رأيته يفوز بالسباق.»

فقال الدوق متسائلاً: «هل تعنين حقاً بانك كنت تفكرين بي منذ ذلك الوقت؟»

طرح هذا السؤال بنوع من التهكم والسخرية، لكنه دهش عندما وجدها تشيح بوجهها عنه وقد غمرت حمرة الخجل خديها.

انه وللمرة الأولى يرى امرأة تتورد خداها خجلاً. فأخذ يراقبها بصمت إلى ان التفتت إليه قائلة: «ربما كان من الأفضل ان لا... اخبرك بذلك... لكن لا بد وانك تساءلت لماذا وافقت... على الزواج منك، خاصة واننا لم نتقابل مرة في حياتنا.»

نظر الدوق اليها بذهول ثم سألها: «هل تحاولين القول بأنك وافقت على ان تكوني زوجتي لأنك شاهدتني مرة امتطي الجواد وبقيت عالقاً في ذهنك منذ ذلك الوقت؟»

أجابت سمالا: «طبعاً، هذا هو السبب على موافقتي! فعندما جاءت شقيقتك لرؤية والدي ولتطلب يدي منه، لم ادرك في البداية عمن كانت تتحدث. وفي الحقيقة، شعرت انه من الاهانة ألا نجتمع... قبل موعد الزفاف.»

توقفت عن الكلام، فقال الدوق: «وماذا فكرت بعد ذلك؟»

«عندما قالت ان شقيقها هو دوق باكهرست، عرفت ان الحظ يبتسم لي، وانا التي كنت افكر بك ليس في احلامي فقط، بل في القصص الكثيرة التي الفتها لنفسي منذ رأيتك تقفز بالجواد فوق الحاجز الأخير، وعرفت بانك ستكون الفائز دون منافس...»

فتن الدوق بالطريقة التي تكلمت بها، لدرجة انه اعتقد بأنه يعيش بشخصية احدى الاساطير الخيالية.

تذكر ذلك السباق جيداً، فالحواجز كانت عالية جداً وجواده كان لايزال صغيراً، فاعتقد وقتها، ان امله بالفوز كان ضئيلاً.

وعندما تلقى التهاني والهتافات المشجعة، ادرك بأنه

يستحقها كل الاستحقاق، فمن العجيب والغريب اذاً، ان تكون سمالا قد شاهدت ذلك السباق وقدرت معنى الفوز والنصر.

فقال لها معلقاً: «افهم بانك من محبي ركوب الخيل.»

شعت عيناها ببهجة وكان مثل هذا الحديث يسرها ثم قالت: «أحب هذا الأمر اكثر من أي أمر آخر، ولهذا السبب اريد ان ارافقك في ذلك، لكن عليك ألا تروض رافس المتوحش قبل ان تستعيد عافيتك وقوتك.»

سألها الدوق بنبرة لاهية: «هل عدت مرة أخرى لأن تقولي لي ما افعله وما لا افعله؟»

أجابت سمالا بنبرة جادة: «ليس بهذا المعنى، انني فقط احاول ان اقول لك بأنك رجل عزيز، ولا داعي لأن تعرض نفسك للمخاطر الغير ضرورية.»

فكر الدوق بأنه تلقى العديد من المديح في حياته، لكن ما يسمعه الآن منها، هو الأكثر صدقاً واخلاصاً.

فقال: «شكراً لك، لكن دعيني اقول لك، فإذا كنت تتوقعين مني ان ابقى ملتفاً بهذه الاغطية القطنية، فستجدينني لا احتمل ومزعجاً جداً، وقد يكون من الحكمة ان تغربي عن وجهي.»

أجابت سمالا: «لقد نسيت انني زوجتك، من واجبي ان اسليك وازيل الهم عنك، لذا فلقد فكرت بطرق عديدة ومتنوعة تبعد عنك الضجر والملل في مكوثك الطويل هذا، ولنبدأ أولاً بالجريدة، فهل ترغب ان تسمع ما قيل عن خبر زفافنا؟»

أجاب الدوق بسرعة ودون تفكير: «لا، لا ارغب!»

عندما اجابها، تذكر على الفور كم كره فكرة الزواج وكل

ما يتعلق به، وكيف بزواج ادموند ولوتي، اجبر على القيام بأمر كان يرفضه طوال حياته.

ثم سمعها تقول بصوت منخفض وكأنه آتٍ من خارج هذه الغرفة: «آسفة... لم اقصد ازعاجك... لكن لم تكن لي ادنى فكرة.. بأنك كرهت زفافنا... لهذه الدرجة.»

ادرك الدوق بأنه اخطأ وتسرع في تلك الاجابة القاسية التي جرحتها في العمق.

فحاول جهده ان يزيل العقدة بين حاجبيه وقال بنبرة لطيفة: «كنت اتساءل كم من الناس الذين جاءوا فقط ليشربوا ويأكلوا وليقدموا لنا التهاني الصادقة ظاهرياً فقط.»

أجابت سمالا: «اعتقد ان جميعهم كانوا صادقين، لأنهم معجبون بك كثيراً، فأنت رجل مميز، وعلاوة عن ذلك رجل رياضي ممتاز اشتهر بكافة البلاد بموهبته الرائعة في ركوب الخيل، انهم يريدون ان يكونوا مثلك، وان يفوزا دون غش، ويتمثلون بك، ليس فقط في ركوب الخيل، بل في أية طريقة أخرى تعيشها.»

نظر الدوق اليها بدهشة، وصعب عليه ان يصدق بأنها تحاول فقط تملقه لأجل سبب شخصي يراود نفسها، بل كان متأكداً بأن ما تقوله كان صادقاً ونابعاً من قلبها لا من شفتيها.

لقد كان الدوق خبيراً بكل ما يختص بالرجال، وكل الذين خدموا معه في الجيش.

فالرجال الذين قادهم، لم يعجبوا به فقط بل كانوا يحترمونه كل الاحترام، وكانوا يعرفون أيضاً بأنهم لا يستطيعون ان يتشبهون به بشيء.

لقد كان يعرف متى يكذب الرجل لينقذ نفسه من العقاب حتى قبل ان يتفوه بكلمة واحدة.

لكن وبالرغم من انه لم يكن خبيراً بأكاذيب النساء، عرف بأن سمالا كانت تتكلم بصدق ادهشه كثيراً لأن ذلك أمراً نادر الوجود.

لذا، ولأنه اخطأ بالطريقة التي تكلم فيها عن الزفاف، قال لها: «اتمنى لو يمكنني ان اصدق ان ما تقولينه حقيقة، ومما لا شك فيه ان البريطانيين يميلون إلى الرياضة، الأمر الذي يتناساه غالباً السياسيون في بعض الأحيان.»

فقالت سمالا: «هذا ما كنت افكر به، وانه ليس لديك الكثير لتقوم به في مجلس الشيوخ.»

نظر الدوق اليها يتأملها بينما تابعت: «لقد اعجبت بالخطاب الذي القيته حول القساوة في نصب الافخاخ للحيوانات، وحول تحريض الثيران على القتال، الأمر الذي يعتبر رهيباً وليس انسانياً في عالم الرياضة، والذي يجب ان يمتنع الجميع عن مشاهدته.»

سألها الدوق بذهول: «هل تقرأين خطاباتي؟»

أجابت سمالا: «بالطبع افعل ذلك! حتى انني قطعت من الجريدة كل مقالة كتبتها واحتفظت بها.»

نظر الدوق اليها وكأنه يصعب عليه ان يصدق ما يسمعه منها، بينما تابعت سمالا: «كنت اناقش هذه المقالات مع والدي، وكم كنت اتمنى أن اكتب اليك لتتكلم عن مواضيع أخرى كنا نعتقد انها تحتاج إلى انتباه في مجتمعنا هذا.»

«يمكنك الآن ان تقولي لي ما تشائين.» قال الدوق ذلك وهو يفكر بأن هذا الأمر لم يتوقعه ابداً خاصة من زوجته.

اخذت سمالا تقرأ له العناوين الرئيسية في الجريدة والمقالات البرلمانية.

كان الدوق في البداية يصغي لاهتمامه في سماع مثل هذه الاخبار، ولكنه وجد نفسه بعد ذلك مأخوذاً بمدى عذوبة صوتها.

لقد كان دائماً يكره النبرة العالية والحادة التي تصدر من المرأة، ولا يستلذ بحديثها، لكن الموسيقى النابعة من صوت سمالا، جعلته يستسلم للنوم كالطفل الذي تهدهده والدته.

• • •

قدمت سمالا للدوق بعد ظهر هذا اليوم العاباً مسلية ومتنوعة كانت قد وجدتها في الطابق الأسفل، على امل ان تسليه وتنسيه بقاءه الطويل في الفراش.

وقالت له: «ان المشرف على منزلك رجل رائع، ولقد اخبرني بانك ماهر بلعبة الشطرنج، واخشى ان تغلبني بسهولة، ولكنني سأشاطرك هذه اللعبة لو كان ذلك يرضيك.»

لعبا لعبة الشطرنج لفترة طويلة، وقد كان الدوق الفائز دائماً ولكن بقليل من الصعوبة.

فقالت سمالا متنهدة عندما اعلن الدوق عن ربحه: «انك بارع في هذه اللعبة اكثر مني، لكن وكما قلت لك سابقاً بأنك تبقى الفائز دائماً مهما كان خصمك قوياً وبارعاً.»

فقال: «اذا تابعت الكلام بهذه الطريقة ستجعلينني اشعر بالغرور.»

«لا اعتقد ذلك.»

«لماذا تقولين ذلك؟»

«لأن بعض الاشخاص يصيبهم الغرور عندما لا يقدرون امكانياتهم. فأنت تعرف متى نويت القيام بأي شيء، انك ستحصل عليه طالما تقوم به بطريقة صحيحة، وهذا ليس غروراً، ولكن بكثرة معرفتك وثقافتك وبسبب ارادتك القوية على الفوز.»

كان الدوق يصغي اليها بذهول ثم قال: «لم اسمع احداً يشرح اسباب فوزي بهذا الشكل، وافهم جيداً ما تحاولين قوله.»

«كنت ووالدي نقول دائماً، كم انه من المحزن ان لا يكون هناك رجالاً عظماء في العالم ليسيروا عقول الناس بالطريقة الصحيحة لتنمو الحضارة وتزدهر بدلاً من ان تتحطم.»

كلامها هذا جعل الدوق يقول: «اعتقد انك تقصدين بأن نابليون كان لا يملك السلطة الفاعلة.»

أجابت سمالا: «تماماً... فبالنظر إلى ما سببه من معاناة ومآسي، ترى ان الأمور لن تصطلح قبل مرور جيل كامل.»

«مع ذلك، اعتقد بأنه سيذكر دائماً بأحد اعظم رجال التاريخ.»

فقالت سمالا: «ذلك يتوقف على ماذا تعنيه بكلمة أعظم.»

سر الدوق بحديثها لا بل اسر به، لأنه حديث لم يتوقعه قط من أية امرأة، وطبعاً ليس من شخص في سن سمالا.

حتى انه اقر بينه وبين نفسه، بأن جمالها غير عادي، وهذا ما لم يتوقعه في ان يجده في الزوجة التي اجبر على الزواج منها.

تركته سمالا عندما أحضر له العشاء، ولكنها عندما عادت

إلى غرفته سائلة: «اتساءل فيما لو نتناول معاً وجباتنا، إلا إذا كنت تفضل ان تأكل بمفردك.»

أجاب الدوق: في الحقيقة يضايقني ان اجبرك على تناول طعامك في هذه الغرفة، لكن اذا كان هذا لا يزعجك، فانا أوافق على ان نتناول معاً طعام الغداء والعشاء.»

اجابت سمالا: «اتمنى ذلك، كما انني سارتدي واحداً من فساتيني الأنيقة لكي تشعر بانك تتناول الوجبات بطريقة لبقة.»

فقال الدوق: «الذي ترتدينه الآن، لهو انيق حقاً.»

لقد كانت ترتدي فستاناً من الحرير أبيض اللون، جعلها تبدو اصغر سناً وبانها الطفل الذي تصوره قبل الآن.

عيناه الخبيرتان بهذه الأمور، جعلته يلاحظ بانه قد خيط بأنامل امهر الخياطات.

فقالت سمالا: «يجب ان اخبر شقيقتك بانك اعجبت بثيابي التي اهدتني اياها بمناسبة زفافي.»

تهيأ لها بأن الدوق رفع حاجبيه متعجباً، فاسرعت تضيف: «اعلم بأن ذلك قد يبدو غير عادي وبانه كان على والدي ان يقدم لي الجهاز، لكنه لو فعل لما استطاع ان يقدم سوى ثوباً واحداً، وقد يجعلنا هذا في عجز مادي اكثر من السابق.»

ثم ضحكت بعذوبة لتضيف بعد ذلك: «لو جئت اليك بملابس القديمة، لكنت بدوت كالمتسولة التي ستتزوج من الأمير ولكنت جعلتك تشعر بالاحراج بالرغم من دراماتيكية هذا الأمر.»

أجاب الدوق: «ولكنت أوجدت للجميع شيئاً ليثرثروا به.»

«لكنني اؤكد بانهم سيثرثرون لأي وضع قد اكون عليه.»

خيم صمت بسيط قبل ان تسأله: «ما الذي جعلك تريد الزواج مني، بينما هناك العديد من العائلات الثرية... التي قد ترحب بك كصهر لها؟»

تنهد الدوق مفكراً بانه كان عليه ان يتوقع مثل هذا السؤال وان يستعد للاجابة عليه، ثم أجاب بعد ان شعر ان هذا أمر هام بالنسبة لسمالا: «لقد سمعت دائماً كم والدك ووالدتك كانا يعجبان بهذه المقاطعات التي املكها. فما هو اجمل من ان تنضم هذه المقاطعات إلى مقاطعاتكم خاصة وانها تتصل ببعضها؟»

رأى عيني سمالا تشعان فرحاً، فادرك بانه قال الكلام الصحيح.

ثم قالت: «اتساءل فيما لو كان هذا هو السبب لذلك، ولكنه يسعدني جداً بانك فكرت بي.»

تكلمت ببساطة وبصدق لم يخطىء بهما الدوق، ثم تابعت: «سيأتي ياتس ليرتب سريرك استعداداً للنوم، وفكرت بما انك اصبحت احسن من قبل، فلا لزوم ان انام في هذه الغرفة الليلة.»

لمست تردد الدوق فاضافت بسرعة: «سأنام في غرفتي ولكنني سأترك الباب المتصل بغرفتك مفتوحاً لعلك شعرت بالعطش أو بالتعب، فيمكنك ان تنادي علي وسأصحو في الحال لأنني استيقظ بسرعة.»

وافقها الدوق قائلاً: «اعتقد ان ذلك لا بأس به، لكنني لن ازعجك يا سمالا لأنني وكما قلت اشعر بصحتي افضل من الأمس وقادر على الاعتناء بنفسي.»

«ولكن عدني بأن تنادي علي لو كنت تحتاج إلى شيء..»

أجابها الدوق: «نعم انني اعدك..»

فابتسمت قائلة: «شكراً لكل الأشياء المثيرة التي قمنا بها اليوم، فلا تدري كم اسعدني ذلك..»

ابتسمت له مجدداً فظهرت تلك الغمازتين اللتين يسعده رؤيتهما ثم تابعت: «ولكنني متأكدة بأنك كنت تفضل ان تكون في ذلك الوقت تروض رالفس المتوحش..»

لكنه وقبل ان يتمكن من الاجابة، كانت قد انسحبت من الغرفة بينما دخل ياتس من باب الغرفة الرئيسي.

وعندما خرج ياتس، اخذ الدوق يفكر بسمالا وكم وجدها مختلفة عن كل اللواتي عرفهن في السابق، والسبب يعود في عدم معرفته بكل ما يختص بالفتيات الصغيرات، لكن وحسب اعتقاده، كانت سمالا فتاة غير عادية.

كما انه فكر ان شقيقتيه كانتا بغاية الذكاء عندما عثرتا له على الزوجة المناسبة التي سترث لقب ومنصب دوقة باكهرست بكل فخر واعتزاز، ولدهشته، ادرك انه لن يضجر منها كما تصور له قبل معرفته بها.

ولأول مرة تساءل عما قاله الناس عندما غادر حفلة الزفاف ليمتطي ذلك الجواد الذي اوقعه ليصل إلى ما هو عليه الآن.

كما انه ادرك وبما انه ترك الحفلة قبل أي مدعو آخر، بأن الأقاويل والأحاديث ما زالت تدور حول تصرفه الغريب ولن تتوقف.

شعر وهو يتذكر كل ذلك، بالخجل من نفسه لأنه لم يسيطر على مشاعره التي دفعته ليتصرف بتلك الطريقة المخجلة.

ويعلم أيضاً ان معظم الناس سيقولون هذه طبائع باكهرست ولن يغيرها حتى في يوم زفافه، كما ان اصدقاءه المقربون سيضيفون بأنهم كانوا على ثقة انه لن يقوم بهذا العمل على اكمل وجه، لذا فقد شعر انه مجبر على ان يتكيف بما يحلو له فعله.

لكن وبالرغم من كل ذلك، اعتقد ان بتصرفه هذا، كان متوقعاً أم لم يكن، سيؤثر بسمالا دون شك، كما انه كان متأكداً بأن البارونة ستقرأ تقارير ذلك الزفاف في الجريدة برضى وارتياح.

فتساءل الدوق لو ان الحادث الذي الم به قد يجعلها تشعر بأنها احرزت هدفاً تبعد زوجته عنه، أو انها قد شعرت بالضيق من عدم رؤيته ولفترة طويلة. على كل حال، فان البارونة تعجبه كثيراً، لكنه وجد نفسه الآن يسأل نفسه فيما لو كان هذا صحيحاً.

تذكر شقيقتيه وكم كانتا مصدومتين لأنه ترك حفلة الزفاف بهذا الشكل امام العديد من المدعوين، انه ومن الطبيعي، مثل هذه الأمور التي تأتيه من الآخرين لا تزعجه اطلاقاً، لكن افكاره كانت متجهة إلى سمالا الآن وفيما لو انها صدمت من تصرفه، وبما انها مازالت صغيرة السن ومعجبة به كل الأعجاب لا بد وانها شعرت بجرح عميق في نفسها.

فادرك الآن وبعدما وصفته بالفارس المغوار ما الذي قد تكون شعرت به عندما شاهدته في ميدان السباق، فهي لم تكن تفكر به كرجل، بل كبطل لمعتقداتها ومثالياتها والذي ملأ احلامها ومخيلاتها.

فقكر الدوق قبل ان يخلد إلى النوم: يجب ان اكون حذراً معها بالذي اقوله أو افعله، حتى لا اجرح شعورها.

لم يخطر بباله قط ان ما فكر به، لهو تصرف غريب عنه وخاصة تجاه الزوجة التي لم يكن يريدها والتي كان على ثقة بانه سيكرهها منذ اللحظة الأولى التي ستقع عيناه عليها.

• • •

استلقت سمالا في سريرها وعيناها عالقتان في الباب المفتوح الذي يفصلها عن غرفة الدوق. ولأنها تركت الشمعة مضيئة في غرفته، كان بامكانها ان ترى ضوءها الذهبي يملأ الغرفة، فتخيل لها كانها نجمة تضيء في ظلام الليل.

وتمنت لو يشفى من آلامه بسرعة لتراه من جديد ذلك الرجل الرياضي الشجاع الذي يمتطي الجواد لأنه يعلم مسبقاً بفوزه الأكيد.

فقالت بينها وبين نفسها: انه مدهش، وتماماً كما تصورته قد يكون!

ثم اخذت تشكر حظها لأنها كانت محظوظة في ان تكون زوجته. واخذت دموع الفرح تدحرج بعد ذلك على خديها.

تابعت شكرها لأن صحته قد تحسنت اكثر ولأنها لم تجد وحدها فتى احلامها بل أيضاً مورين. وقالت لنفسها: اعرف بأن والدي سيكون سعيداً جداً معها، كما سيكون الدوق معي، لأنه لو لم يطلبني للزواج، لما قلقت على والدي وتمكنت من

احضار مورين اليه، فكرامته لا تسمح له ان يطلب منها ان تتزوجه.

استمرت سمالا بأفكارها لفترة طويلة قبل ان تثقل اجفانها واستسلمت للنوم.

استيقظت فجاة مذعورة وقد شعرت بأن شيئاً قد ازعجها، ولأنها لم تكن متاكدة اذا كان الدوق نادى عليها ولم تسمعه.

قفزت من السرير وتوجهت رأساً إلى غرفته تضيء طريقها الشمعة التي تركتها إلى جانب سريره.

وعندما اقتربت منه، وجدت بأنه لم يناد عليها كما اعتقدت، بل كان يغرق في نوم عميق، وكان وجهه يبدو اصغر سناً على ضوء الشمعة.

وقفت تنظر إليه مفكرة بمدى وسامته وكم هو حقاً يشبه احد اجداده في ذلك الرسم.

كان ياتس قد الح عليها لتخرج في اليوم التالي للزفاف لتتنشق بعض الهواء ولتريح اعصابها، وذلك قبل ان تجلس إلى جانب زوجها الفاقد الوعي، عملت بنصيحته ومشت في الحديقة تمتع نظرها بالأزهار والرياحين.

لقد كان من الصعب عليها ان تراها بهذا الوضوح بين ذلك العدد الكبير من المدعوين إلى حفلة زفافها.

عبقتْ رائحة الأزهار في انفها وانعشتها حالما اصبحت في احضانها، وتراءى لها بأن كل زهرة كانت تميل إلى زميلتها تهمس لها بسعادة وتصبح عليها.

تقدمت في الحديقة اكثر إلى ان وصلت إلى تلك اللوحة التي حفرت في الصخر وعليها رسم احد اجداد الدوق.

اخذت تدعو من صميم قلبها لأن يحبها الدوق ونظراتها لا تفارق رسم ذلك الجد، فتراءى لها بأنه يبتسم لها ويعدها بأن احلامها ستتحقق. الآن وبينما كانت تنظر إلى الدوق في نومه العميق، جلست على كرسي الى جانب سريره، واغمضت عينيها من شدة تأثرها.

وعندما فتحتهما، وجدت الدوق ينظر اليها بذهول تام.

الفصل السادس

دخلت سمالا من الباب الرئيسي للمنزل، فأسرع إليها الخادم العجوز قائلا: «ارجو أن تكوني قد استمتعت بنزهتك يا سيدتي، فالجو لطيف اليوم.»

اجابت سمالا: «انه حقاً كذلك يا هيفسون.»

ثم تابع الخادم يقول: «لكن عليك أن لا تذهبي بعيداً وأن لا تقومي بأعمال منهكة، فخدمة سيدي هدت قواك.»

ابتسمت سمالا وقد لاحظت أن هيفسون يتكلم كما تتكلم المربية عادة، حتى كل الخدم المسنين يتكلمون معها بنفس الطريقة، وكأنها ما زالت طفلة عليهم الاعتناء بها جيداً، ويمنعونها عن القيام بالأعمال الكثيرة

لقد تبدلت حياتها تماماً بعد أن كانت تقوم بالأعمال كلها بنفسها في منزل والدها، وكانت تقضي الوقت تتساءل عن الاشياء التي يجب أن تعملها أو الحصول عليها، فتقف عاجزة للصعوبات المادية التي تعترضها فكأنها عادت طفلة في رعاية مربيتها.

فسألت: «هل نزل الدوق من غرفته؟»

اجاب هيفسون: «سينزل بين لحظة واخرى من الآن يا سيدتي، وسيبقى إلى جانب الدرابزين يتمسك به، فذلك سيكون اسهل عليه.»

قالت سمالا: «يجب ألا يقوم بالكثير في أول يوم من تركه للسرير، وإذا لم يطرأ اي طارىء، فسأمارس معه غداً ركوب الخيل.»

فقال هيغسون: «اعرف يا سيدتي بأن ذلك يسرك، ودعيني اقول لك، بأن ما من احد يجيد ركوب الخيل مثل سيدي.»

ابتسمت سمالا وكأن ما قاله أمر تعرفه ولا داعي لأن يخبرها به، ثم قالت: «انني اتشوق لأقوم بذلك مع الدوق غداً، لكني لم احضر معي السوط.»

هذا لأن السوط الذي كان بحوزتها، كان قديماً ومتآكلاً، ولقد خجلت من أن تشرح له ذلك بعد ان وجدت كل شيء يخص الجياد في اسطبل باكهرست في حالة ممتازة.

فقال هيغسون: «لا مشكلة في ذلك يا سيدتي، هناك العديد منها هنا والظاهر انك لم تنتبهي لها.»

ثم مشى امامها إلى تحت السلم حيث وضعت طاولة مرمرية صف عليها العديد من الأسواط المختلفة الاحتياجات.

دهشت سمالا لاختلاف وكثرة انواعها، ثم لفت نظرها واحد يفوق البقية لمعاناً وبريقاً فمدت يدها إليه، لكن هيغسون أسرع يقول: «يجب ألا تستعملي هذا بالذات.»

فسألته سمالا بفضول: «ولِمَ لا؟»

«لقد جاء به سيدي من الهند حيث كان قد قدم له، وعلمت انه من المهراجا نفسه.»

لقد كان السوط رفيعاً صنع من السلك، اما مسكته فقد كانت ذهبية مرصعة بالعديد من الحجارة الكريمة.

قالت مبتسمة: «اعتقد انها ثمينة جداً ولا يجب استعمالها.»

اجاب هيغسون: «ليس الامر كذلك، دعيني أشرح لك يا سيدتي.»

حمله بيده، وقد بدا السوط عادياً، ثم ضغط على زر صغير في المسكة الذهبية، فظهر منها، سيف حاد وخطير.

شرح هيغسون قائلاً: «لقد قدمه المهراجا لسيدي، كسلاح يحمي به نفسه عندما يكون في الغابات على صهوة جواده.»

أدركت سمالا بوضوح كيف ان هذا السوط سيثبت بأنه سلاح ممتاز لو صادف الدوق ثعبان الكوبرا على غصن شجرة، أو حتى اذا صادف الدوق حيواناً مفترساً في الغابة.

ضغط هيغسون على الزر مرة اخرى ليعيد السيف الحاد إلى مكانه، ثم وضعه على الطاولة وتناول سوطاً آخر.

ثم قال: «أؤكد لك ان هذا السوط يناسبك تماماً يا سيدتي.»

اجابت سمالا: «كما وانني اكيدة، وفي الواقع، انا لا استعمل السوط الا اذا كنت مجبرة، مع انه من الاصح استعماله.»

فقال هيغسون: «انني متأكد من ان اي جواد سيطيعك يا سيدتي من دون ان تدفعيه دفعاً لاطاعتك.» ومرة ثانية، لاحظت سمالا نبرة المربية القلقة عليها من صوته، الأمر الذي جعلها تبتسم له بعطف.

شعرت فجأة بشوق كبير للدوق، فابتعدت عن الخادم بسرعةٍ إلى غرفة الجلوس الخاصة به.

كانت غرفة جميلة ومريحة، وقد علق على جدرانها رسومات لأجداد الدوق، كما كانت تعتبر الأكثر قيمة من اللوحات الأخرى.

لكن عندما دخلت سمالا اليها، ركزت عينيها على الدوق

فقط، الذي كان يجلس إلى النافذة وكعادته بكامل اناقته التي تلفت الانظار.

فأسرعت اليه بحماس شديد مما جعله يبتسم لها.

ثم سألته: «كيف تشعر اليوم؟ الم تجد صعوبة في ارتداء ملابسك وفي النزول بمفردك من الطابق العلوي؟»

اجاب الدوق: «اشعر بنشاط كما في السابق، ومن الآن فصاعداً، لا اريد ان اسمع اية ثرثرة بشأن صحتي، وتاكيداً لذلك، فهذا الشيء اكرهه كرهاً شديداً.»

فعلقت سمالا قائلة: «لكن السؤال عن صحتك يصدر عادة من الاشخاص الذين يحبونك.»

نظر الدوق اليها متأملا وادرك بان الحب بالنسبة إليها يعني شيئاً مختلفاً عن بقية الناس الذين سمع عنهم في السابق. على كل حال، هذا موضوع لا يرغب بمناقشته في هذه اللحظات.

فقالت سمالا: «سيحضر طعام الغداء بعد قليل، ثم نقرر ما علينا أن نقوم به لفترة بعد الظهر. لقد فكرت، بالرغم من انك قد لا توافق، انك ربما ترغب في رؤية شتول الزنبق الجديدة في البيت الزجاجي للحديقة.»

فقال الدوق: «معك حق، فلا ادري لماذا لم افكر بذلك بنفسي.»

قالت سمالا: «كنت اذهب لرؤيتها كل يوم، وكلي أمل بأن تتفتح إلى ازهار بديعة قبل ان تترك السرير، لكنني لن اضيف شيئاً عنها وسأتركها مفاجأة لك.»

ابتسم الدوق قائلا: «لم اكن اعرف قط بان منزلي يمتلىء بالمفاجآت، الا عندما دخلت اليه، واعتقد

انك شاهدت ازهاراً اخرى في الحديقة اعجبتك.

وافقته سمالا قائلة: «نعم شاهدت كل ما هو رائع وجميل، ولم اصدق انني قد اجد شيئاً مماثلا في اي مكان.»

ابتسم الدوق مرة اخرى ثم قال: «عندما رأيتك للمرة الأولى، اعتقدت انك طفلة صغيرة.»

فسألته سمالا باهتمام: «هل حقاً اعتقدت ذلك؟ ان اغلب الناس يقولون عندما يشاهدونني، بأنني ابدو صغيرة السن كثيراً! ولكن يبدو عليهم انهم قد نسوا بأنني عاجلا ام آجلا سيظهر علي الكبر.»

ضحك الدوق ثم قال: «هذا امر لا بد منه لسوء الحظ.»

لم تجب سمالا، فسألها: «ما الذي يقلقك؟»

اجابت سمالا: «كنت افكر، انك ربما شعرت بالخيبة عندما وجدتني لست كبيرة في السن وناضجة، فلطالما تصورت الدوقة تكون طويلة القامة ومميزة، وفكرت لو انني ارتديت التاج، سأبدو حتماً مثل القطر!»

ضحك الدوق بملء فيه دون ان يتمكن من السيطرة على نفسه، ثم قال: «هذا من دون شك هو الصواب بعينه، لذا من الأفضل ان تعتمري القبعات الصغيرة التي يوجد منها الكثير.»

نظرت سمالا اليه وسألته: «الم تلاحظ ما كنت اعتمره على رأسي يوم الزفاف؟»

فكر الدوق انه من الافضل ان يكون صادقاً معها، لذا فقد اجاب: «لا، هل كنت تضعين اكليلا على رأسك؟»

تنهدت سمالا ثم قالت: «لقد تمنيت وانا آتية مع والدي، ان ابدو جميلة بنظرك كما تتمنى ان تكون زوجتك.»

كان في صوتها ألما جعل الدوق يقول: «يمكنك ان تقولي بانني كنت متوتراً من الزواج، ولا يمكنني ان اتذكر الآن شيئاً مما حدث بعد ذلك وكما تعلمين، لقد اصبت بارتجاج في المخ من جراء ذلك الحادث الذي اصابني.»

«بالنسبة الي... كان الزفاف... رائعاً جداً!»

ثم، وكأنها شعرت بأنه قد يفكر بأنها تتذمر، اضافت بسرعة: «سأحتفظ بثوب الزفاف وسأرتديه عندما تشعر بالتحسن، لترى كما كان جميلا. وربما يمكنني ارتداؤه كل سنة في يوم ذكرى زفافنا. هذا اذا لم اسمن.»

«اعتقد ان هذا غير مستحب.»

تكلم الدوق بجفاف، لكنها لم تكن متأكدة فيما لو كان ذلك اطراء أو لا. وقبل ان تتمكن من قول اي شيء، جاء الخادم ليبلغهما بأن طعام الغداء أصبح جاهزاً.

تناولا الطعام في غرفة صغيرة، بيضاوية الشكل قام على تصميمها روبرت ادام وقد طغى عليها اللون الأخضر، وفيها فجوات في الجدران وضع بداخلها التحف الثمينة.

فسألته سمالا: «هل تشعر عندما تجلس في هذه الغرفة بأنك من فرسان الاغريق؟»

فبادرها الدوق بسؤال آخر: «هل عدلت عن رأيك بأنني الفارس المغوار لأصبح ابولو أو زيوس؟»

اجابت سمالا بسرعة: «ابولو بالطبع، اتذكر كم كان رؤوفاً مع الجياد!»

ضحك الدوق ثم انتقل بهما الحديث إلى نوعية الجياد ايام الاغريق وفيما لو كانت اصيلة كجياد اليوم في بريطانيا. ففكر الدوق عند الانتهاء من الغداء، انه كلما كان

مع سمالا، تجد دائماً مواضيع جديدة ليتحدثا بشأنها.

لقد عرف منها ايضاً، انها لا تحب الجياد وركوبها فقط، بل تملك معلومات ومعرفة واسعة بأصالتها خاصة تلك التي يملكها الاخرون.

فسألها عند ذلك: «كيف عرفت هذه المعلومات عن جياد اللورد دربي؟»

اجابت سمالا: «ذلك يرجع لوالدي بالطبع، فهو يقرأ الجريدة يومياً وكذلك المجلة الرياضية.»

ففكر الدوق بأنها كانت لا تقرأ فقط المجلة الرياضية، بل تحفظها جيداً لتحصل على مثل هذه المعلومات الكثيرة.

فقال: «لقد علمت انك وبينما كنت نائماً، ذهبت إلى الاسطبل.»

سألته: «وكيف لا افعل ذلك؟ انني لم اشاهد في حياتي مثل هذه الجياد! كما وانني امضيت وقتاً طويلا اتكلم مع رافس المتوحش، واعتقد بأنه وعدني بالا يكون قاسياً معك مرة اخرى.»

اجاب الدوق: «اذا بللته كثيراً، فساكون منزعجاً اشد الانزعاج.»

فقالت سمالا بجدية: «لا اعتقد انه قد يصبح كذلك، ولكنني لا يمكن ان احتمل... اذا سبب لك الأذى مرة اخرى.»

لاحظ الدوق الارتجاف في صوتها، ولكنه قرر ان يتجاهله.

لقد خامره شعور بأن حب سمالا له يزداد يوماً بعد يوم، والذي كان يخشاه عندما تعود اليه عافيته، ان تجد صعوبة في ان تكيف نفسها من دونه طوال الوقت.

فقال بينه وبين نفسه: لا اريد ان اؤذيها، لكن في الوقت نفسه، لي حياتي الخاصة وهذا امر عليها ان تتقبله شاءت أم أبت.

خرجا بعد ذلك إلى الحديقة بغية التوجه إلى الغرفة الزجاجية فيها، لقد شعر بحماس سمالا للذي تريد ان تريه اياه، فتأثر من ذلك اشدّ التأثير.

فهو لم يعرف امرأة في حياته بهذه البراءة والعفوية. وخطر بباله ان يقدم لها هدية كي يعرف ما قد تكون ردة فعلها، وشعر بأنه كان مقصراً عندما لم يفكر في ان يقدم لها شيئاً يوم الزفاف.

فتحت سمالا باب الغرفة الزجاجي، الذي تمّ بناؤها في مطلع القرن الماضي وعلى الطراز الهندسي الجورجياني.

كانت الشمس ترسل اشعتها على الازهار جميعها التي بدت في غايه الجمال مع النباتات الخضراء التي زرعت حواليها.

حتى انه كان في وسط الغرفة الزجاجية نافورة صغيرة للمياه. وعندما اقتربا منها، وجد الدوق الازهار البيضاء والزهرية النادرة التي احضرها معه من دارجيلينغ.

لقد كانت ما زالت براعم ولكنها فاتنة تأخذ بالألباب والشمس تغمرها بدفئها. ففكر الدوق بأنها تشبه سمالا بكل شيء.

وكأنه عندما وجدها واحضرها إلى لندن، كان يفكر بسمالا.

امسك بيدها وشعر اكثر بسعادتها وبهجتها بالذي تريه اياه، ولاحظ في عينيها الزرقاوين وهي تنظر اليه، حماس وكأنها تريد ان تتأكد من ردة فعله.

لم يتكلم، فسألته بعد لحظات قليله: «هل...اعجبتك؟»

اجابها: «بل ادهشتني! وافكر بما ان لا اسم لها، يجب ان تسمى باسمك.»

دهشت سمالا وسألته: «هل تعني ذلك... هل تعني ذلك حقاً؟ انها اجمل هدية يمكنك ان تقدمها لي! شكراً لك... شكراً لك!»

التفت الدوق لينظر اليها، فشعر بسعادتها الكبيرة للذي قاله لها من عينيها المتلألأتين.

حتى انه فكرّ انها اللحظة الملائمة ليعبر عن شكره لزوجته ولأول مرة، لكنه عندما حاول ذلك، شعر بأحدهم يقترب منهما، وكان ذلك هيفسون.»

فسأله الدوق: «ماذا هناك يا هيفسون؟»

اجاب هيفسون لاهثاً: «جاءت البارونة فون شلتر لرؤيتك يا سيدي، تقول بأنها في الجوار الآن، وتطلب رؤيتك بالحاح قبل ان تعود إلى لندن.»

لوى الدوق شفتيه اشمئزازاً وهو يفكر بأعذار البارونة الدائم لرؤيته.

انه يعلم انها جاءت ليس لمعرفتها بالحادث الذي المّ به فقط، بل لأنه لم يتصل بها كما كانت تتوقع.

شعر فجأة ان اصابع سمالا قد تصلبت في يده، بينما كانت تنتظر الرد الذي سيعطيه لهيفسون.

وادرك بأنها متوترة، ليس لأنها خائفة أو تشعر بالغيرة من البارونة، ولكن لانها شعرت بأن المتصلة عكرت عليهما صفو هذا الوقت الذي يمضيانه سوية، خاصة عندما وللمرة الأولى، يترك الفراش بعد الحادث.

ففكر انه لو ذهب لرؤية البارونة، ستشعر سمالا بالوحدة والاهمال كأنها طفلة صغيرة وعدت بالذهاب إلى مدينة الملاهي ثم اخلف الوعد معها.

لكن ومن المدهش بل العجيب، انه هو نفسه لا يرغب في رؤيه البارونة وفي هذه اللحظات.

حتى انه شعر وبكلمات لا يمكن التعبير عنها، بأنها غريبة عن منزله وعن هذه الأزهار، وعن الشمس المشرقة، وبالطبع عن سمالا.

بقي للحظات لا يصدق هذا الشعور الذي انتابه فجأة، انه يرفض رؤية البارونة بشدة.

كان هيفسون ينتظر جوابه، كذلك سمالا، وبالرغم من الأفكار العديدة التي اخذت تروح وتجيء في رأسه، قال بعد لحظات قليلة: «ابعث باعتذاري للبارونة يا هيفسون، وقل لها وبأسف شديد، انني ما زلت اتبع ارشادات الطبيب في ألا أستقبل أي ضيف لبضعة ايام.»

ادرك وهو يقول ذلك، بأن الابتسامة عادت إلى شفتي سمالا، كما ان الاشراق عاد إلى محياها.

وشعر أيضاً بأنامل يدها يجري فيها الدم مرة اخرى، وبأن البهجة غمرت نفسها بعد ان قرر الدوق ان يبقى معها.

اجاب هيفسون باحترام: «حسناً يا سيدي.» ثم ابتعد عنهما.

فقالت سمالا بعد ذلك: «والآن سأريك ازهاراً جميلة اخرى، لكنها ليست، ولا يمكنني ان انسى ذلك، اجمل من التي سميت باسمي.»

دارت مع الدوق حول نافورة المياه، ليشاهدا الازهار

الأخرى، ثم قالت له سمالا بحزم، انه قد مشى ما فيه الكفاية لليوم الاول وعليه ان يعود إلى غرفة الجلوس.

لم يعارضها في ذلك، لأنه ولدهشته شعر بالفعل، بأن قدماه ترتجفان قليلا، وعندما وصل إلى مقعده المريح قرب النافذة في غرفة الجلوس، جلس عليه بارتياح شديد.

وكأنما سمالا عرفت ما كان يشعر به، لم تطرح عليه اية اسئلة، بل توجهت إلى طاولة في الناحية الأخرى من الغرفة لتسكب له بعضاً من العصير المنعش الذي يفضله.

كانت قد لاحظت قبل الآن، انه وفي الصالات الأخرى للمنزل، يوجد دائماً ابريقاً من العصير المنعش مع بعض الأكواب، وعندما استفهمت من هيفسون عن سبب ذلك، أوضح لها ان هذا جزء من الكرم وحسن الضيافة الذي ورثه في كل منزل آخر يملكه.

هذا امر آخر توقعت سمالا معرفته عن فارسها المغوار بأنه كريم وسخي جداً ومضيافاً، مما يعني انه قد يمدّ يد المساعدة لأي شخص جاء يتسوّل اليه.

تناول الدوق الكوب من يد سمالا وشرب منه القليل، ووجد نفسه يفكر بغرابة، كيف رفض رؤية البارونة، وكم تكون قد شعرت بالغضب في خروجها خائبة من المنزل.

فقال في نفسه: ستنسى غضبها سريعاً.

ثم شعر انه لم يعد يهمه فيما لو ستنسى ذلك ام لا، وعرف بأن الستارة قد أسدلت على فصل آخر من حياته، لأنه ومتى عاد إلى لندن لن يحاول الاتصال بالبارونة من جديد.

ثم فكر بينما كان ينظر إلى وجه سمالا الطفولي البريء وقد جلست إلى النافذة تقلب صفحات كتاب، أنه سيعمل

جاهداً بألا تعرف أن هناك نساء من أمثال البارونة في هذه الحياة.

وأكثر من ذلك، سيكون من الخطأ الفادح لها في ان تواجهها أو تواجه كل من عرفهن في حياته السابقة.

لقد خامره شعور، بأنها لن تتعرض للصدمة فقط منهن، بل ايضاً ستتعرض للأذى في مشاعرها وحتى للخوف الشديد من انه وكبطل في نظرها يتدنى في اختيار معارفه إلى اسفل الدركات.

قرر الدوق بينه وبين نفسه: يجب ان اعمل جهدي كي ابعدها عن امور كهذه.

ثم ومن ناحية أخرى، فكر كم انه لأمر غريب ان يقرر مثل هذا القرار، والأغرب من ذلك، الشعور المفاجيء الذي داهمه ليحمي امرأة لا من النساء الأخريات فقط، بل من ان تعرف شيئاً عن حياته السابقة المليئة بالمغامرات.

ذلك لأنها كانت كالطفلة ببراءتها ونقاوتها، فقد يؤلمه كثيراً لو انه اخبرها بصدق كل شيء عنه، الأمر الذي قد يشعرها بأن سمعتها تلطخت من دناءته وفساد اخلاقه.

لكنه تذكر أن من مثل تفكير وعقلية سمالا، ليس هناك ما يشبه براءة الأطفال، حتى انه لاحظ عليها، ان باستطاعتها أن تقرأ ما يجول في فكره، لذا يتوجب عليه ان يحذر كي لا يجلب الاكتئاب إلى نفسها.

عرف ان في ذلك كمن يمزق الأزهار التي سمّاها باسمها ورميها على الأرض باهمال، فابعد عنه هذه الافكار، ليجد نفسه يفكر من جديد بانعكاس الشمس على شعرها الأشقر الذي تحوّل إلى خيوط ذهبية مشعة.

داهمته فكرة مفاجئة ومغايرة عن خصائصه، كم سيكون الامر صعباً عليه لو حاول مرة ان يلمسها.

وتذكر ان مثل هذا الشيء لم يحدث معه ولا مرة في حياته السابقة.

فأدرك ان النقاء والصفاء اللذان شعر بهما وشاهدهما على وجهها يوم رآها تدعو لأجله كي يشفى من آلامه، كانا نابعان من اعماق روحها.

انه امر لم يشعر به الدوق يوماً في حياته، حتى انه لم يكن يعتقد بأن له وجود في الحياة.

فتأكد له ان البراءة التي تتغلغل في نفس سمالا، جزءاً لا يتجزأ منها، وهذا امر آخر عليه ان يسعى إلى حمايته ومن واجبه ذلك طالما اصبحت تخصّه هو.

وكأنما كل ما كان يفكر به، قرأته سمالا على وجهه وشعرت به، فرفعت نظرها اليه، واخذا ينظران إلى بعضهما دون ان يرمش لهما جفن.

• • •

شعر الدوق بالتعب، بعد ان تناولا معاً الشاي والحلوى اللذيذة الذي اعدّها الطباخ، وكان قد استمتع برؤية سمالا تهتف ببراءة لكل قطعة حلوى وهي تأكلها بشهية ولذة ما يعرفها لذة.

ثم قالت: «كانت تقول لي والدتي، بأن الناس الذين يعيشون في منازل كبيرة كهذه، يحصلون على حلوى كهذه، لكن وبالرغم من ان منزلنا كان كبيراً، لم يكن بقدرتنا ان نحصل على مثلها.»

فسألها الدوق: «ما الذي كنت تأكلينه اذاً؟»

اجابت سمالا: «الخبز والزبدة فقط، ثم كان علينا الاختيار ما بين العسل الذي نستخرجه من النحل الذي نربيه، أو المربى الذي كنا نطبخه ايام الصيف والذي كان مرّ المذاق نوعاً، لعدم توفر السكر عندنا.»

سألها الدوق عند ذلك: «كيف يمكن ان تكونوا فقراء إلى هذه الدرجة؟»

اجابت سمالا: «كان والدي يطرح مثل هذا السؤال دائماً. لكن الحرب في البداية افسدت كل شيء، كما ان المزارعين كانوا فقراء وليسوا شباناً ليعملوا في الارض بصورة مستمرة، وهذا يعني انهم لن يتمكنوا من دفع ايجاراتهم المستحقة لوالدي.»

تنهدت ثم تابعت: «لكن والدي لم يخذلهم بالطبع، فسمح لهم ان يبقوا دون ان يدفعوا شيئاً، وهذا يعني أيضاً اننا لم نعد نحصل على مدخول لمصاريفنا.»

«لكن لا بدّ لوالدك ان يحصل على مدخول من مكان آخر؟»

«كان جدي رجل مسرف جداً، ولم يترك لوالدي سوى حصصاً قليلة، هذا بالاضافة إلى ديونه الكثيرة وإلى الشركات التي كان يمتلكها واعلنت افلاسها، وكان هناك ايضاً كفالات قال لي والدي مرة انها لا تساوي قيمة الورق التي طبعت عليها.

فقال الدوق: «انها حقاً قصة محزنة، لكن الآن انتهى كل شيء، وآمل أن أتمكن من مساعدة والدك بطريقة لا تشعره بأنني أحسن عليه.»

سألته سمالا: «هل يمكنك حقاً ان تفعل ذلك؟ فقد يكون ذلك

امراً مدهشاً، لأنني اعرف ان والدي سيشعر دائماً بأنه ما كان عليه ان يتزوج من امرأة ثرية اكثر منه.»

ثم اخذت تخبره كيف حاولت جهدها لتقنع والدها بالزواج من مورين هنلي قبل ان تتركه.

ولأنها قامت بسرد القصة بطريقة مسلية، اخذ الدوق يضحك بمرح بالرغم من انه لاحظ على سمالا كم كانت قلقة بشأن والدها من دون شخص يقوم على خدمته وعلى تقديم الغذاء الجيد له.

فقال الدوق بعد ان كفّ عن الضحك: «لم افكر بعد بطريقة تقديم المساعدة له، لكن ربما يمكنني ان اقترح عليه بما انني اريد ان أوسع حقولي في السنوات المقبلة، سأستأجر بعض الأراضي منه، وهذا يعني بأنني سأحافظ عليها بطريقة جيدة، وحتى ايضاً لو وافق، ارغب في ان اشتري احدى مزارعه.»

صفقت سمالا بيديها بسعادة ثم قالت: «هل يمكنك حقاً ان تفعل ذلك دون ان تشعره بأنك تحسن اليه؟»

«اؤكد لك انني مشهور جداً بلباقتي في مثل هذه الأمور.»

هتفت سمالا قائلة: «انني اكيدة من ذلك، وانه يمكنك وانت بهذه الروعة وهذا اللطف، ان تفكر بشيء قد يجلب السعادة إلى والدي؟»

قال الدوق بصوته العميق: «لانني اريد ان اسعدك.»

«هذا ما سأفعله انا ايضاً تجاهك.»

ثم قامت من المقعد واقتربت منه لتضيف بتوسل: «ارجوك... ارجوك ان تتعافى بسرعة، لكي نتمكن بعد ذلك من التنزه على صهوة الجوادين في تلك الحقول التي

ستستثمرها من والدي ولأريك المزرعة التي يمكن ان تشتريها منه.»

لمس الدوق شعرها بلطف، ووجده كما توقع، ناعماً وحريرياً.

ثم قال: «انني في صحة جيدة! لكن وبما انه يتوجب علي ان ارتاح اكثر قبل ان نقطع مثل هذه المسافة الطويلة، فقد نقوم بذلك بعد يوم أو ربما يومين.»

تنهدت سمالا بارتياح ونظرت اليه نظرات كلها امتنان وشكر.

• • •

ذهب الدوق إلى الفراش مباشرة بعد ان تناولا طعام العشاء، وقد زعم على نفسه بأنه يفعل ذلك ارضاء لسمالا، بينما هو في الحقيقة كان يشعر بالتعب الشديد. لكنه استيقظ في صباح اليوم التالي وقد شعر بأنه قد استعاد عافيته ونشاطه ويحتاج الآن لبعض التمارين الرياضية.

تناول طعام الفطور في غرفة الجلوس التي يفضلها على غيرها وهو يتساءل لماذا لم تشاركه سمالا به.

وللحظات قليلة شعر ببعض الانزعاج لأنه اصبح لا يملك قراره كما في السابق، لكنه فهم بعد ذلك، بأن سمالا لا تقصد شيئاً سوى الانتباه إلى صحته وإلى ما اشار اليه الطبيب، وانه قد يكون من الصعب عليه ان يركب الخيل في اليوم الاول لشفائه.

وبما انه لم يكن ولا واحد من جياده في البداية وديع

وقابل للتدريب، فهذا يعني انه من الخطر عليه ان يمتطي الآن جواداً مثل راقس المتوحش.

ثم قال بصوت مسموع: «اعتقد، انها لا تفكر الا بمصلحتي.» لكنه لم يلاحظ بأن ياتس كان موجوداً معه.

وقد اجاب: «لم أجد امرأة عرفتها تفكر بك، كما تفكر سيدتي بك، أنت تعلم يا سيدي بأنني اتكلم الصدق.»

فعلق الدوق بسخرية: «لطالما فكرت بالنساء اللواتي يهمهن امري بطريقة أو بأخرى.»

اصر ياتس قائلاً: «لكنهن لسن مثل سيدتي، وقد علّق السيد هيفسون بالقول امس، حتى اننا لم نحس بأشعة الشمس يوماً على المنزل كما نحسها اليوم بعد مجيء سيدتي اليه، كما انه اصبح فيه أحاسيس ومشاعر طيبة لم نلمسها في السابق.»

فسأله الدوق: «ماذا تعني بذلك؟»

لقد كان من عادة ياتس، ان يعبر عن مشاعره بطريقته الخاصة، وكان يحبه لاجل ذلك ويجده مسلياً، حتى انه كان يصغي اليه دائماً باهتمام كما لا يصغي لأي خادم آخر يعمل عنده.

فقال ياتس: «لا اعرف، لكن كل ما استطيع ان اقوله، بأن السيدة تختلف بجوهرها وطيبتها، ولقد تغلغلت في ارجاء المنزل بسهولة.»

توقف للحظات قبل ان يتابع: «ليس فقط لأنها تعطي الكلمة الرقيقة لكل من تلتقي به، وبابتسامة تجعلك ترد عليها بابتسامة أخرى كنت تريد ذلك ام لا، انما الملاحظ، انها تريد ان تعطيك شيئا، وشيئاً

نريده ولم نكن نعرف بانه كان موجوداً في الأساس.»

نظر الدوق اليه بذهول تام بينما تابع ياتس يقول وهو يفرك فروة رأسه: «ارجو ان اكون قد شرحت الأمر جيداً يا سيدي، لكن هذا ما أشعر به.»

ثم شعر ياتس وكأنما أخرج من هذا الحديث، خرج من غرفة الجلوس إلى غرفة نوم الدوق.

أخذ ينظر إليه مبتعداً وهو ما زال على حاله من الدهشة والاستغراب، ثم فكر وهذا أمر غريب، بأنه هو أيضاً كان يشعر بما يشعر به ياتس، بالرغم من أنه لا يريد أن يعترف بأن سمالا هي من منحته كل تلك المشاعر.

كان على طاولة الطعام رسالتين من شقيقتيه، لكنه لم يفضهما، لأنه شعر بأنهما كتبتا له من باب الفضول وليس لسبب آخر.

عرف أن اليزابيت لم تكن على اتصال مع الطبيب فقط، بل مع سمالا ايضاً لتستفسر عن صحته.

إنما كان اكيداً بأن الذي يهمها معرفته، كيف الحال معه بعد أن تزوج.

كانت متلهفة لتعرف فيما لو هواجسه المظلمة بشأن الزواج قد أزالتها سمالا عن رأسه بفتنتها ولطفها، أو إذا لم تتمكن من ذلك وجعلت من طور النقاهة له، وقتاً طويلاً من الضجر والسأم.

لكنه امر لا يرغب مطلقاً بالحديث عنه فإذا كانتا شقيقتاه تشعران بالفضول، فلتستمرا بذلك حتى يضجرا، لأنهما لطالما ازعجتاه بذلك من قبل.

فالذي يفكر فيه بشأن سمالا، هو شأنه وحده، ولا يريد ان تضغط عليه شقيقتاه أو أي أحد ليجبروه على التكلم عن حياته الشخصية قبل أن يكون مهيأ لذلك.

بعد ذلك، ولأنه كان يعرف بأن سمالا تنتظره، بدأ يرتدي ملابسه بمساعدة ياتس، وهو بشوق كبير لأن يمتطي جواداً بعد هذه المدة التي امضاها في السرير.

وعندما بدأ يهبط السلالم، نظر إليه الخدم من الأسفل باعجاب شديد.

انهم يعرفون حق المعرفة، أن ما من أحد مثل سيدهم في أناقته ومهارته بركوب الخيل.

اسرعت سمالا إليه عندما اصبح في قاعة المنزل، فرأى مدى جاذبيتها بملابس ركوب الخيل الزرقاء التي تنسجم مع عينيها الزرقاوين من خلف الحجاب.

فقالت لاهثة: «الجوادان في الخارج، وآمل ان يرضيك امتطاء الجواد كروسادر الذي رأينا أنه يناسبك أكثر من غيره.»

لقد كان كروسادر جواداً أسود اللون، يشبه كثيراً ذلك الجواد الذي رأته سمالا يمتطيه منذ عدة سنوات ولم يبرح خيالها.

كان يعلم دون ان تقول له، بأنها فكرت بكل ذلك بمفردها، وبأنها في الوقت نفسه تخشى ان يسيء فهما وأن يفسد هذه المناسبة التي أوحاها لها عقلها.

لم يدر لما هو بهذا الحذر بما قد تفكر به سمالا، فنظر في عينيها التي تلألأت كنجوم الليل وإلى ابتسامتها المحببة إلى القلوب، ثم قال كلاماً كانت ترغب كثيراً ان تسمعه منه:

«يسعدني ان امتطي كروسادر، وآمل ان تكوني اخترت جواداً مثله لكي نبقى على نفس السرعة.»

«بالطبع فعلت!»

سكتت قليلا ثم تابعت: «انني سامتطي وايت نايت.»

ضحك الدوق وكأنه ادرك حقاً بأنها ستختار مثل هذا الجواد، ولم يشأ ان يفسد عليها هذا الحلم الخيالي الذي تعيشه الآن والذي ليس موجوداً سوى في القصص.

«هيا اذاً.» قال الدوق ذلك وهو يخرج من الباب الرئيسي للمنزل.

انه غير مسموح له ان يمشي بمفرده، لكن ياتس كان جاهزاً له ولأن يضع يده على كتفه.

لحقت سمالا بهما، لكنها وبعد ان مشت قليلا، عادت فجأة إلى الداخل بسرعة.

لقد نسيت السوط، وكانت على وشك ان تقول ذلك لهيغسون، لكنه كان قد سبقها إلى الخارج ليراقب سيده وهو يهبط السلالم لعله كان بحاجة للمساعدة.

لم تطلب من الخادم ان يحضره اليها، بل توجهت إلى ما تحت السلالم وتناولت السوط الذي انتقاه لها هيغسون في السابق.

لكنها لم تلاحظ بأنها احضرت السوط المرصع بالجواهر والذي جاء به الدوق من الهند، الا عندما اصبحت على صهوة الجواد وايت نايت.

فكرت انه ربما عليها ان تستبدله في الحال، لكنها عدلت عن فكرتها هذه كي لا تؤخر الدوق، كما ان ذلك غير ضروري خاصة وانها لا ترغب باستعماله على وايت نايت الذي بدأ يمشي بهدوء.

فأسرعت تحثه ليكون جنباً إلى جنب مع جواد الدوق، بينما كان الجميع يراقبونهما بفرح وسعادة.

بدا الدوق رائعاً وهو فوق الجواد الأسود، بينما بدت سمالا صغيرة وسريعة السقوط من على جواد عظيم مثل وايت نايت، لكنها وبالرغم من ذلك امتطته بطريقة عبّر بها رئيس السيّاس بالقول: «إنها نسخة مطابقة من سيدي!»

وعندما وصلا إلى الجسر الذي يقطع البحيرة قال الدوق: «سآخذك الآن إلى مكان انا اكيد بأنك لم تذهبي اليه في حياتك. انه مكان خاص وعزيز علي، اذهب اليه في كل مرة اعود فيها إلى المنزل.»

فقالت سمالا بحماس: «اخبرني عنه.»

«انها بحيرة اخرى في غابة عند اسفل المقاطعة التي امتلكها، وفيها بطّ وطيور لم تشاهدي بمثلها في كل البلاد.»

هتفت سمالا قائلة: «يا له من أمر مثير! انني حقاً لم اذهب اليها قط، ويسعدني ان أزورها معك.»

اجاب الدوق: «لقد عرفت بأنك ستفرحين بهذا الأمر، يمكننا الآن ان نسوق الجوادين بسرعة إلى اسفل المقاطعة، لكن عندما نصل إلى الغابة، سنضطر لأن نكون خلف بعضنا لضيق الطريق، وطبعاً سأمشي في المقدمة كي أرشدك.»

قالت سمالا: «بالطبع، وعندما نصل إلى بحيرتك السرية، سنتنافس لنرى من يمكنه ان يلاحظ كم نوع من الطيور فيها.» تنهدت ثم أضافت: «انني اكيدة بأنك ستفوز، لكنني سأتعب جهدي كي افوز عليك.»

فقال الدوق: «سيكون من العار علي لو فزت أنت، لأنه، وبما ان لا احد من قبلك اظهر اهتماماً بها، كنت اشعر دائما بأنها تخصني انا وحدي، ولا يمكن لأحد أن ينافسني على احصاء انواع طيورها.»

ثم ولأنه شعر بأنه يريد ابعادها عن الفوز عليه، قال: «لكن الآن بالطبع، سأتشارك بها معك.»

فقالت سمالا بسرعة: «ليس اذا كنت غير راغب بذلك.»

اجابها الدوق: «لا يمكن ان تكوني قد نسيت، انه وفي مراسيم الزواج، قلت وبوضوح، بأنني سأشاركك بكل ما املك في هذا العالم، فهذا يعني البحيرة ايضاً.»

ابتسمت ابتسامة اظهرت غمازتيها بوضوح ثم قالت: «سأفكر يوماً بشيء أقدمه لك، لكن وبما انني لا املك شيئاً في هذا العالم، سأقدم لك شيئاً لا يمكن ان تجده على الأرض، بل سيأتيك من الأعالي ومن فوق السحاب.»

فقال الدوق: «سأنتظر بشوق هديتك هذه.»

عبرا بعد ذلك الجسر، ثم بدآ بالانحدار إلى اسفل المقاطعة نحو الغابة البعيدة.

الفصل السابع

فكرت سمالا بينما كانت مع الدوق في نزهتهما على ركوب الخيل، بأنه الأمر الأكثر سعادة من بين الأشياء التي قامت بها في حياتها كلها.

أحياناً، وفي احلامها، كانت تحلم بأنهما معاً يستمتعان بركوب الخيل، ولكن بما انها كانت تتصوره الفارس المغوار، كانت تعتقد بأن مكانها غير مناسب وهي إلى جانبه.

ولكنها الآن برفقته، انها حقيقة وليس حلماً، وقد وجدت في ذلك ابتهاجاً اكثر مما كانت تتصوره قد يكون.

فبالرغم من ان اهتمامها الأول كان محصوراً بالتركيز على الجواد وايت نايت الذي تمتطيه، استمرت تنظر إلى الدوق باعجاب تفكر انه من المستبعد ان يبدو رجل آخر بروعته واناقته.

اعجبت بقبعته التي يعتمرها بطريقة جانبية يظهر بعضاً من فروة رأسه السوداء.

لقد لاحظت عندما امتطي جواده، بأنه تألم قليلاً من جراء الضربة التي تلقاها سابقاً على صدره، ولكن الآن يبدو عليه انه نسي تلك الألم وعادت إليه حيويته.

فالجواد كروسادر، الذي تكلمت بأمره كثيراً في الاسطبل، ليس لأجل اسمه فقط، ولكن أيضاً لأنه كان احد اهم جياد الدوق وقد بدا وكأنه رسم لأحد

اللوحات التي يفتخر الأثرياء بتعليقها على الحائط.

لقد أملت سمالا عندما ارتدت ملابس ركوب الخيل الزرقاء اللون، بأن تبدو في نظره ولو اقل بقليل جاذبية من النساء اللواتي رافقهن الدوق في مثل هذه النزهة.

لم يكلمها احد عن ماضي الدوق أو عن عدد النساء اللواتي مررن في حياته، لكنها لم تكن على شيء من الغباء كي لا تدرك بأن من عنده صفات الدوق لم يعرف واحدة.

انما الذي ادهشتها، عدم زواجه لغاية الآن، الأمر الذي دعاها إلى ان تشكر حظها لأنه اختارها هي بالذات من بين الجميع.

وكانت تسأل نفسها كل ليلة عندما تأوي إلى الفراش: «كيف يمكنني أن اجعله سعيداً؟»

لقد كانت تدرك انه بالرغم من سعادتها لوجودها إلى جانبه، بأن هناك شيء ناقص في علاقتهما الزوجية، وهو طبعاً الحب المتبادل بين كل زوجين.

انها تحبه، لا بل تشعر بأن حبها له يتزايد مع كل لحظة من لحظات اليوم الواحد.

وكانت تقول في عتمة الليل عندما تصبح في غرفتها: «هذا ما اشعر به تجاهه، ولكن لماذا هو لا يشعر بنفس الشيء تجاهي؟»

انها لم تكن انانية ولا تفكر سوى بنفسها، خاصة بعد تلك السنوات من الكفاح لأجل لقمة العيش، تعلمت خلالها ان لا تفكر بذاتها، بل فقط بوالدها.

انما الآن، وبعد ان الأمور المادية لم تعد تشغل

رأسها، وجدت انها بدأت تفكر بانسانة تدعى سمالا والتي تمنحها يوماً درة من التفكير طوال حياتها الماضية.

فعندما نظرت إلى نفسها في المرآة، لم تصدق ان ما تعكسه لها هي صورتها بالذات.

لقد اختفت تلك الظلال السوداء حول عينيها لأنها اصبحت تتناول وجبات مليئة بالغذاء الكامل واصبحت تجد أيضاً أوقاتاً للمتعة. فالرفاهية وحسن الأحوال المادية، عادة تجعل من الانسان يبدو اصغر سناً مما هو عليه في الواقع.

وعلاوة على ذلك، هي تحب الدوق وسعيدة به، حتى ان الخدم شعروا بانها مثل اشعة الشمس التي دخلت المنزل لتدفئه بحنانها. وقد كانت تجد في كل ما تنظر إليه، شيء ممتع وتريد ان يشاركها فيه الآخرون، وعلى الأخص الدوق نفسه.

ولقد كانت تستيقظ كل صباح لتفكر مباشرة بالاشياء الجديدة التي قد تقوم بها لتسليته، أو لتفكر بالمواضيع التي يمكن ان يتباحثا بها وبالاسئلة التي يمكن ان تطرحها عليه لأنه كان ذكياً وترغب ان تتعلم منه. وكم قالت لنفسها في مرات عديدة: «انه رائع.. ورائع جداً!»

انها الآن تكرر ذلك في نفسها مع وقع خطوات الجوادين: «انه رائع، وليس في العالم من مثيل له!»

وكأنما عرف ما يجول في خاطرها، التفت الدوق ونظر اليها مبتسماً، فشعرت بقلبها يهوى من مكانه.

ثم سألها: «هل تستمتعين بهذه النزهة؟»

«كثيراً، لدرجة انني لا اجد الكلمات لأعبر بها عن ذلك.»

«انني سعيد أيضاً في عودتي لركوب الخيل.»

«شعرت انك قد تكون كذلك.»

ابتسم لها مرة أخرى، ومن دون ان تشعر، اقتربت بجوادها وابت من جواده اكثر.

لم تكن الغابة التي يقصدانها بعيدة، فحث الدوق الجواد ليسرع اكثر، ثم ابطأه بعد ذلك.

فقال لها: «هل ترين الاشجار؟ هناك ما نقصده، ساخفف منها السنة القادمة، كي يكون من السهل الوصول إلى البحيرة اكثر.»

فقالت سمالا: «أرى ان لا تجعل الأمر سهلاً، والا ستجد اناساً آخرين يعرفون هذا المكان إلى جانبنا.»

اجاب الدوق: «هذا ما اقوله لنفسي احياناً، واظن لهذا السبب تركت الغابة على ما هي طيلة ذلك الوقت.»

احبت سمالا الطريقة التي كان يتكلم بها، وكأنه يشاركها اهتماماته بالمقاطعة، وهذا أمر تريده ان يحصل حقاً في المستقبل.

كان والدها أيضاً يأخذ برأيها بكل ما يختص بممتلكاته، انما كانا دائماً يصلان إلى طريق مسدود بسبب الضائقة المالية.

ولكن الآن تبدل كل شيء، وتعلم ان مورين ستتفهمه وستسهل عليه المصاعب، لأنها تعرف ماذا يعني لوالدها كل شجرة، كل هضبة، كل حقل في مقاطعته، كما انها ستعيد ترميم المنزل المتصدع، وحجيرات الاسطبل التي ترشح

بالماء، ثم سألها الدوق فجاة: «لماذا تبدو عليك كل هذه الجدية؟»

«كنت افكر بوالدي، واتمنى من زوجته ان تساعده في عقاراته التي تحتاج إلى ترميم والاصلاح.»

«اعتقدت اننا نحن سنقوم بذلك.»

ثم رأى في عيني سمالا بريقاً شديداً مثل ألف شمعة مضيئة، وكأنما خشي بأن تشكره على ذلك، فاسرع يضيف: «سنتكلم غداً بهذا الأمر، اما الآن، ما اريدك ان تفكري به، هو بحيرتي السرية، واذا تقدمنا منها ببطء وهدوء، لن نزعج طيورها، وستمنحك هذه المناسبة من رؤيتها كلها.»

تقدم الدوق بالجواد امامها، فادركت انه من الخطأ الآن ان تتكلم.

دخلا الغابة المكتظة بالأشجار في ممر اوسع من الممر السابق، لكن لم يكن هناك من مجال لتقدم الجوادين إلى جانب بعضهما في وقت واحد.

شعرت سمالا من مدى حبها للدوق، بأن الاشجار تكلمها، وبأن الحمام الذي اخذ يطير حولهما لا يخاف منهما، بل يريد ان يظهر لهما جمال ريشه كلما نفضوا بأجنحتهم.

لم تستطع اشعة الشمس من الوصول إلى الغابة بسبب كثافة الاشجار، ففكرت سمالا بأن الغابة رائعة وغير عادية كأي شيء يخص الدوق، حتى ان مخيلتها بدأت تحول كل ماتراه إلى اشياء وهمية لا تعرف الا في الاساطير.

وعندما اصبحا في منتصف الغابة، قفز فجأة امامهما رجلان من الجهتين.

ظهورهما الغير متوقع اذهل سمالا، لكن وبردة فعل سريعة منها، تمسكت برسن وايت نايت جيداً.

وعندما فعلت ذلك، رأت ان الرجل الذي إلى جانب الدوق، قد امسك بذارعه واخذ يشده كي ينزله عن الجواد.

قاوم الدوق، واخذ جواده كروسادر يقفز عالياً، فأسرع الرجل وضربه بهراوة كان يمسكها بيده.

وقع الدوق من على ظهر الجواد، بينما اخذ جواده يعدو مسرعاً في ذلك الممر.

عاد الدوق يحاول تحرير نفسه من قبضة الرجل مرة أخرى وبدأ يقاتله بيده اليمنى، وقد اخذ يحمي نفسه من هراوة الرجل بيده اليسرى.

جرى كل ذلك وكأنه احد الكوابيس المزعجة، إلى ان ادركت سمالا ان الرجل الآخر على وشك ان يضرب الدوق بالهراوة.

لكن وعندما حاول ان يهوي بها عليه، تحركت سمالا دون ان تمنح لنفسها بعض التفكير، وكأنما قوة غريبة دفعتها لتقوم بذلك، فتقدمت بجوادها، ثم ضغطت على الزر في مسكة السوط، فخرج السيف الحاد منها، وبسرعة غرزته في كتف الرجل.

صرخ الرجل صرخة مؤلمة تردد صداها في ارجاء الغابة، فحول الرجل الأول نظره عن الدوق ليرى ما الذي حدث، فأسرع الدوق عند ذلك دون ان يضيع الفرصة عليه، ولكمه على ذقنه فرماه أرضاً.

وبعد ان كبحت سمالا جوادها، لاحظت ان الدوق كان واقفاً والرجلان ملقيان على الأرض فاقدان الوعي.

اقتربت منه وقد بدأت تشعر الآن بمدى خوفها، واخذت ترتجف بشدة لدرجة انها كانت تفقد توازنها فوق السرج.

نظر الدوق اليها قائلاً: «اخشى بأنه يتوجب عليك ان تضميني إلى جوادك، خاصة انه لا يمكننا الامساك بكروسادر الآن.»

تكلم بهدوء شديد وكأنما لم يحدث شيء غير عادي، على عكس سمالا التي سألته بصوت ضعيف: «هل انت بخير... الم يؤذياك هذان الرجلين الرهيبين؟»

أجاب الدوق: «إنني بخير، لكنني اعتقد انه من الأفضل لنا ان نخرج من هنا.»

ثم تقدم من جوادها، فأدركت ان عليها ان تخرج قدميها من ركاب السرج لأنه سيمتطيه معها، ثم قفز ليجلس على ظهر الجواد امامها، فتراجعت ما امكنها إلى الوراء مفكرة انها ولحسن الحظ ليس حجمها كبير والسرج كبير جداً.

امسك الدوق بالرسن وراحت بها الذكريات إلى الايام السعيدة الغابرة حيث كان والدها يجلسها معه على نفس الجواد عندما كانت صغيرة السن.

اخذ الدوق يقود الجواد بانتباه وحذر في الممر دون ان يكلف نفسه بالنظر مرة أخرى إلى الرجلين الملقيين على الأرض، وبعد ان قطعا مسافة لا بأس بها، قالت

سمالا بنبرة ضعيفة بالكاد سمعها الدوق: «هل... قتلت ذلك الرجل؟»

أجاب الدوق: «آمل ذلك، لكن لا تقلقي، واتركي كل شيء لي، فأنا لا اريد ان اورطك بمثل هذا الأمر.»

«ولكنني... متورطة بالفعل.»

فقال بحدة: «لا! هذا شيء لن اسمح به.»

لم تفهم ما كان يقصد من هذا الكلام، ولم تناقشه لكثرة ما كانت تشعر به من الضعف والخوف، ولعلمها بأنه كان من الممكن ان يكون الدوق نفسه هو الملقى على الأرض الآن.

ثم فكرت بينها وبين نفسها: «لقد انقذته!» وكانت صرخات الرجل المتألمة الذي طعنته بالسيف الحاد، مازالت تتردد صداها في اذنيها، وتذكرت انها عندما تقدمت من الدوق لتساعده، كانت المحرمة التي لف بها عنقه ملطخة بالدماء.

خرجا من الغابة، فحث الدوق الجواد على الاسراع اكثر، وعندما ظهر لهما المنزل من البعيد، قال لها: «اريدك ان تذهبي مباشرة إلى غرفتك ياسمالا، واستلقي في سريرك، كما اريد منك، ان لا تخبري احداً بالذي جرى، فقط ارتاحي إلى ان اعود اليك.»

«لقد... لقد خفت، بل تملكني الرعب الشديد من ان يقتلك.»

أجاب الدوق: «اعرف، كما انك انقذت حياتي، وسنتكلم بهذا الأمر عندما اعود، اما الآن فأريدك ان تفعلي كل ما قلته لك.»

اصبحا الآن في مقاطعة الدوق، وعندما دخلا

الطريق الخاص المؤدي إلى المنزل، شاهدا عدداً من الجياد يدربهم صبيان الاسطبل في اتجاه معاكس للطريق الذي سلكه الدوق وسمالا عند قيامهما بهذه النزهة.

نادى عليهم، فتوقفوا وتطلعوا بذهول في الدوق وزوجته على صهوة جواد واحد.

تقدم الدوق منهم، ثم قال: «اريد ان يذهب اربعة منكم إلى داخل الغابة حيث ستجدون اثنين من قطاع الطرق. انهما غائبان عن الوعي، فأوثقوهما كي لا يتمكنا من الهرب، وابقوا على حراستهما إلى ان اجيء بعربة لتنقلهما.»

ظهر على صبية الاسطبل بأنهم يفهمون ماذا يتوجب عليهم فعله، ولم يعلقوا بكلمة واحدة، فتابع الدوق يقول: «وانت يا جاد، عليك ان تذهب في الحال إلى منزل رئيس الشرطة، آمل ان تكون تعرف عنوانه.»

«نعم، يا سيدي.»

«هيا اذاً واسرع إليه، واطلب منه ان يجيء لرؤيتي في اسرع ما يمكن لأن هناك أمر طارىء.»

رفع جاد يده إلى رأسه دلالة الاذعان لأمر الدوق، ثم انطلق بجواده بأقصى سرعة.

التفت الدوق إلى صبي آخر وقال: «اذهب انت للبحث عن كروسادر في الغابة وقد تجده عند البحيرة، اما انتم، فتابعوا التمارين لهذه الجياد كما كنتم تفعلون.»

ثم اتجه الدوق إلى منزله بعد ان اعطى اوامره، وأوقف الجواد امام مدخل المنزل لتنزل سمالا

عنه ثم قال لها: «افعلي ما قلته لك بالضبط، ولا تقلقي.»

فسألته بنبرة الأطفال الذين يريدون التأكد والاطمئنان: «هل انت... بخير؟»

أجاب بابتسامة: «ساكون بخير، ثقي بي وحاولي ان ترتاحي.»

كان عند الباب خادم، اسرع في الحال ليساعد سمالا بالنزول عن صهوة الجواد، ثم وبجهد كبير اخذت تجر ساقيها جراً من شدة التعب، بينما ابتعد الدوق بالجواد وايت نايت متجهاً إلى الاسطبل.

عرفت سمالا حالما دخلت قاعة المنزل، ان هيفسون متحمس ليعرف منها ما قد حدث، وما الذي جعلهما يعودان دون جواد الدوق.

لكن كان متعذراً عليها ان تتكلم أو ان تقوم بأي شيء، عدا عن سماع كلام الدوق وتنفيذه بحذافيره.

كانت خادمتها الخاصة المتوسطة العمر، تنتظرها في غرفتها، وقد لاحظت على الفور شحوب وجهها وارتجاف يديها، فادركت ان ثمة شيء قد ألمّ بها.

ساعدتها بنزع ملابسها دون ان تتكلم، ثم ألبستها ثوباً خفيفاً للنوم، فدخلت سمالا السرير والتفت بالأغطية القطنية وهي مازالت على حالها من الرجفان والقلق.

فسألتها الخادمة عند ذلك: «هل ترغبين يا سيدتي بالشراب الساخن؟»

أجابت سمالا: «انها... فكرة... لا بأس بها.»

خرجت الخادمة من الغرفة لتعود بعد قليل ومعها كوباً من الحليب الساخن وقد حلته بالعسل.

شربت سمالا بعضاً منه اعتقاداً منها انه قد يفيدها كثيراً، ثم عادت تستلقي على السرير مترقبة بشوق عودة الدوق لتعرف منه كل شيء.

لقد كانت ولغاية الآن لا تصدق بأن مثل هذا الأمر قد يحدث، خاصة في هذا اليوم الذي وصفته بأجمل يوم في حياتها.

لكن الذي بقي يتأرجح في ذهنها، الخطر الذي كان محدقاً بالدوق، والرجل الذي قتلته كي تنقذ حياة الدوق.

«لماذا يريد احدهم قتله؟» سألت نفسها فلم تجد اية اجابة، عدا ان قاطعي الطرق كانا يريدان سرقته فقط لذلك اقدما على محاولة لقتله.

لكن الدوق كان يعرف السبب من ذلك، وقد أكد على تبديد شكوكه بأن يستعمل الرجل الذي القاه أرضاً، وحتى الآخر إذا كان مازال على قيد الحياة، كدليل ضد ابن عمه ادموند.

لقد فكر طيلة مكوثه في السرير وهو مصاب بارتجاج في المخ، بأن ادموند لن يقف مكتوف اليدين لزواجه، لكنه لم يخطر بباله قط انه قد يقوم بعمل اجرامي مثل هذا.

اعتقد ان ابن عمه وبسبب غضبه الشديد لزواجه، قد يقوم بأي تحرك ميؤوس منه يجبر من الدوق على مساعدته مادياً.

فبعد ان اعطى أوامره بارسال عربة في الحال إلى الغابة

لتحضر الرجلين إلى الاسطبل حيث يسجنا هناك لحين وصول رئيس الشرطة. قال لنفسه، ان هذا الأمر يجب معالجته جذرياً.

انه وعندما عاد من الغابة، كان اهتمامه الأول محصوراً بسمالا وبمدى تأثيرها وخوفها من الذي حصل. ولم يغب عن باله في الوقت نفسه، مدى شجاعتها واقدامها على انقاذه معرضة نفسها للهلاك.

تأكد له، انه ولا امرأة من اللواتي عرفهن سابقاً، كانت ستتصرف بالطريقة نفسها وفي ظل مثل هذه الظروف الغامضة، بل كانت ستملأ الغابة صراخاً هستيرياً.

وقال لنفسه: لقد تصرفت، كما اردت ان تتصرف من التي قد تكون زوجتي.

عرف في تلك اللحظة، وكأنها كتبت امامه بخطوط من نار، انه يحبها.

لقد صعب عليه ان يصدق في البداية بأن الشعور الذي غمره، لم يكن فقط ناتج عن ردة فعله لانقاذه، خاصة وانها نحيلة القوام ويبدو عليها الضعف اكثر من القوة حتى تقوم بقتل رجل من اجل الدفاع عنه.

ادرك ان ما كان يحاربه من شعور تجاهها في الايام السابقة، هو ما يشعر به الآن نحوها في هذه اللحظات.

لقد تمكنت بصفائها وحسن نيتها، ان تزحف إلى قلب الدوق لتستقر فيه نهائياً والذي لم تتمكن اية امرأة أخرى ان تستقر فيه.

وعاد يسأل نفسه: كيف من الممكن أن تكون بمثل هذه الصفات؟

إذاً، الذي يشعر به نحوها هو الحب الذي لم يعتقد ان له وجود من الأساس، انه الحب الذي عبر عنه الرسامون بلوحاتهم الفنية، وكما لحنه الموسيقيون، وكما كتب عنه الشعراء، انه حب روميو لجولييت، وحب قيس لليلى.

وكأنه لم يصدق مثل هذا التغيير الذي طرأ على مشاعره قال لنفسه: لا يمكن ان يكون ذلك حقيقة!

لكنه وفي قرارة نفسه، كان يعلم ان ذلك لم يكن سوى الحقيقة بكاملها.

كما انه عرف بأن باتس كان على حق عندما قال له إن سمالا منحت كل من في المنزل شيئاً كانوا يريدونه ولم يكن عندهم ادنى فكرة ما قد يكون ذلك الشيء الا عندما حصلوا عليه منها.

ففكر الدوق: «انه الحب والمحبة.»

اراد ان يسخر من نفسه لعاطفته المفاجئة تلك، بينما وفي الوقت نفسه، كان متأكداً من انه يشعر بمثل هذا الشعور الذي استيقظ فجأة في داخله.

انه الحب الذي اجتاح عقله وقلبه وروحه، فادرك لماذا اراد ومنذ فترة بعيدة ان يبقى معها.

لقد منع نفسه عن القيام بذلك بسبب حكمه السابق على الزَّواج، وأيضاً بسبب حساسيته الزائدة للنيل بما يسمى بالأفضل دائماً له.

انه يعتقد الآن، انه لولا شجاعتها واقدامها، لكان الآن ملقى على الأرض يتضرج بالدماء، بينما يصبح ادموند الدوق الخامس على باكهرست.

فقال وكأنه يناجي سمالا: «انك تختلفين عن أي شخص آخر في العالم، ولقد كنت تماماً المرأة التي كنت ابحث عنها طوال حياتي، مع انني لم اكن اشعر بأن نفسي كانت تتوق إلى واحدة مثلك.»

وعرف انه يتوجب عليه حمايتها وألا يجعلها تتورط بالفوضى التي احدثها ادموند مهما حدث.

لقد فكر عندما أوصلها إلى باب المنزل وتوجه بعدها إلى الاسطبل، كيف سيشرح لها الأمر وسيبسطه لها بأسهل الطرق التي قد لا تجرح مشاعرها.

اخبر بما جرى له إلى رئيس السياس أولاً ثم إلى عدد من موظفي الاسطبل، وقد اصغوا جميعاً لما كان يرويه بخوف ووجل.

لقد قال: «تعرضت لهجوم اثنين من قطاع الطرق، اللذان كانا ينتظراني في الممر في الجهة الشمالية للغابة، لكن ولحسن الحظ، اكتشفت بعد مغادرتنا المنزل، ان السيدة اخذت معها السوط الذي جئت به من الهند والذي بداخله سيف حاد.»

كان يدرك حين تكلم بانهم لم يكونوا على علم بهذا السوط الا من فترة قليلة، فتابع: «ولقد اعتقدت انه من الخطورة عليها ان تستعمله لعلها اخطأت وضغطت على الزر في مسكة السوط لا شعورياً منها، وكنت على وشك ان ابادلها بالسوط الذي معي حين تعرضت إلى ذلك الهجوم من جانبي الممر.»

حبس موظفو الاسطبل انفاسهم بينما تابع قائلاً: «تمكنت من ان أبعد الرجل الأول عني وضربته بهراوته التي سقطت

على عنقه، ثم نزلت عن كروسادر الذي ابتعد باقصى سرعة بخوف شديد.»

لقد توقع من الطريقة التي كلمهم بها، ان يظهروا الاعجاب لشجاعته واقتناعهم من انه لم ينطق سوى بالحقيقة.

وبعد ان تأكد بنفسه بأن العربة انطلقت إلى الغابة لتأتي بالرجلين، عاد إلى المنزل لينتظر قدوم رئيس الشرطة.

ولحسن الحظ ان صديقه القديم الكولونيل ستونر عرف بما حدث له فقرر ان يستجوب الرجلين المجرمين.

وقد قال بحزم: «من واجبنا أن نعرف من وراء هذه الحادثة، ومن دفعهما ليقوما بذلك.»

فبعد ان اخبر الدوق بكل ما جرى بالتفصيل، مشيا معاً إلى الاسطبل عندما ابلغا بانه جيء بالرجلين وهما الآن مسجونين في داخله.

كانت ساقاهما وذراعهما موثوقين جيداً كي لا يتمكنا من الهرب، وقد كان الرجل الذي طعنته سمالا، قد مات دون شك، اما الآخر فقد ظهر عليه الخوف الشديد واظهر استعداداً لأن يعترف ويبوح بكل ما عنده.

لقد وجدت عشرة جنيهات استرلينية في جيبيهما وكذلك خريطة تدلهما على معالم الغابة وعلى الممر القائم في وسطها.

كما ان التعليمات دونت بخط يد ادموند، لذا فلم يكن من داع للمسجون ان يعطي مواصفاته.

ولقد اقترح رئيس الشرطة ان التهمة الموجهة إلى الرجل الذي مازال على قيد الحياة، ستكون

سرقة الدوق عنوة وقسوة، والتي قد يعاقب عليها بشدة.

لكن اسم ادموند لن يأتي على ذكره في المحاكمة، وسيذهب رئيس الشرطة بتكليف من الدوق إلى لندن ليلح على مغادرة ادموند وزوجته البلاد في الحال، والا سيلقى القبض عليهما بتهمة الجريمة المتعمدة.

فسأله الدوق: «هل حقاً ستفعل ذلك لأجلي؟»

أجاب رئيس الشرطة: «نعم، وبصراحة، بعد ان تعرضت إلى ارتجاج في المخ، لن تقوى على القيام بمثل هذه المهمة، وما عليك ان تفعله، هو ان تبقى هنا وتعتني بزوجتك.»

ثم ابتسم قبل ان يضيف: «على أية حال، فانت مازلت في فترة شهر العسل، ولم تسنح لك الفرصة لترتاح به حتى الآن.»

وافقه الدوق قائلاً: «هذا صحيح.»

نهض رئيس الشرطة عند ذلك وتوجه ليسكب لنفسه كوباً من العصير المنعش، فقال له الدوق: «هل ستوضح لأدموند وبما انك تعرفه كما تعرفني، وقد يصغي اليك، بأنني سامنحه مبلغاً بقيمة الفي جنيهاً استرلينياً في السنة طالما هو خارج البلاد؟»

أجاب الرئيس: «سأوضح له حتى بأن الأمر اكثر من ذلك، وسأعلن له انه اذا وطئت قدمه هذه البلاد، فلسوف يلقى القبض عليه على الفور.»

تنهد الدوق بارتياح قبل ان يقول: «في الواقع، كنت افكر بزوجتي وبمدى قلقها إذا عرفت ان ادموند يحاول بشتى الطرق لأن يبعدني عن منصبي ليصبح هو دوق باكهرست.»

فقال رئيس الشرطة: «سأسعى جهدي ان لا يحصل ذلك. لقد سمعت الكثير عن ادموند مؤخراً، ولم أشأ ان اطلعك عنها كي لا تنزعج اكثر مما انت عليه الآن.»

أجاب الدوق: «لن اتعجب لو سمعت أي شيء عنه، فادموند لم يكن سوى مسبب للمشاكل منذ ان كان طفلاً، وتعلم جيداً ما كان يعتقده والدي به.»

أجاب رئيس الشرطة: «اعرف بالفعل، دع الأمور فقط بين يدي، وانا اعدك ان مثل هذه الامور لن تتكرر بعد اليوم، وسأرى بنفسي ترحيل ادموند وزوجته خارج هذه البلاد خلال أربعة وعشرون ساعة.»

فقال الدوق ببساطة: «اشكرك ايها الكولونيل، والآن، وبما انه وقت تناول طعام الغداء، آمل ان تنضم إلي.»

أجاب الكولونيل: «سأفعل لو اننا نتناوله بسرعة، كي اسافر إلى لندن بأسرع ما يمكن.»

قام الدوق ليطلب تحضير الغداء بسرعة وليقول لهيفسون بأن السيدة ستتناول الطعام في غرفتها وبأن يبلغها بأنه سيراها باقرب وقت ممكن.

• • •

شعرت سمالا بالخيبة الشديدة عندما تلقت رسالة الدوق.

فقد كانت تأمل ان تتناول طعام الغداء معه في تلك الغرفة الصغيرة التي تضم لوحات متنوعة.

بعد ذلك، وعندما حاولت ان تأكل الطعام الذي احضر اليها، رأت نفسها تنشغل عن ذلك لتفكر بالدوق فيما لو كان

يشعر بالتعب الشديد بعد الذي حصل، فأرسلت خادمتها لتبحث عن خادم الدوق ياتس.

فجاء الخادم اليها والاهتمام الشديد يطل من عينيه قائلاً: «هل سيدتي بخير؟»

أجابت سمالا: «انني بصحة جيدة، لكنني قلقة على الدوق لئلا يرهق نفسه كثيراً في يومه الأول لخروجه من المنزل ارجوك ان تقنعه بأن يذهب إلى سريره حالما يخرج رئيس الشرطة في الحال.»

فقال ياتس: «سأقنعه بذلك يا سيدتي، واعتقد لو سألتني عن حاله، اجيبك ان سيدي يشعر الآن بتصلب في العضلات في يومه الأول لركوب الخيل من بعد الزفاف.»

كلامه اسعد سمالا نوعاً ما، ولكنها لم تستطع ان تتوقف عن القلق بشأن الدوق.

شعرت بعد ان اخذت صينية الطعام من الغرفة، بالانزعاج والتوتر، فقامت من السرير ومشت إلى النافذة بتكاسل.

كانت الشمس مازالت ترسل اشعتها الذهبية وبدت الحديقة تنعم بالهدوء والسكينة.

وعادت تفكر بالحادث الغير الطبيعي الذي جعلهما يخوضان تجربة رهيبة نهايتها الموت المحتم.

سمعت في تلك الاثناء باب الغرفة يفتح، فاعتقدت انها قد تكون خادمتها، لكن غريزتها انبأتها بأنها ليست هي بل شخص آخر، فالتفتت لترى الدوق نفسه يدخل الغرفة.

لقد كان الخوف لايزال يلازمها، فأسرعت نحوه دون ان تعطي للأمر فرصة للتفكير، ثم قالت باضطراب: «هل... انت

بخير؟ عدني بأن ذلك لن يحصل مرة أخرى... فأنا لا اعتقد... بأنني سأتمكن من احتمال ذلك!»

نظر في عينيها اللتين بللتهما الدموع، ففكر انه ليس من الممكن ان تكون هناك امرأة مثلها بهذه الوداعة والبراءة.

زال خوفها وعادت اليها طمأنينتها من ابتسامته المشجعة لها وشعرت في الحال كما تشعر كل زوجة بأنها والدوق اصبحا شخصاً واحداً.

قال بعد ذلك: «ايتها العزيزة على قلبي، كيف كان بامكانك أن تكوني بمثل هذه الشجاعة لتنقذيني من الموت المحتم وكيف يسعني ان اقول لك كم انا سعيد لأنني مازلت عل قيد الحياة؟»

فسألته بلطف: «هل ستذهب وتريح نفسك من مشقة هذا اليوم المخيف؟»

أجاب الدوق: «هذا ما طلبته انا منك يا عزيزتي، واعتقد انه من الأفضل لكلينا ان نفعل ذلك. لدي الكثير لأكلمك عنه واعرف ان هذا ما تتوق إليه نفسك لسماعه.»

ثم تابع بعدما رأى البريق في عينيها: «اشعر يا عزيزتي بأنني اعرفك منذ زمن طويل! لربما ذلك صحيح، وقد وجدنا بعضنا من جديد!»

تنهدت سمالا ثم قالت: «لقد شعرت بنفس الشعور عندما وجدتك في المرة الأولى تشبه ذلك الفارس المغوار، والآن انا اكيدة بأنك على حق... وبأننا نعرف بعضنا منذ زمن بعيد.»

فأجاب الدوق مبتسماً بعد ان لمس التردد فيما قالته اخيراً: «لقد عرفت الآن بأنك أنت ما كنت اريدها في

الحياة والتي ستحرسني وتساعدني والتي ستحتل ذلك المركز الهام في قلبي.»

هتفت سمالا قائلة: «لا اصدق بانك حقاً تسمعني مثل هذا الكلام، لا بد انني... احلم!»

ضحك الدوق ثم قال: «إذا كنت تحلمين، فانا أيضاً احلم مثلك، ودعيني اقول لك بانه حلم رائع ومثير.»

• • •

بعد فترة استراحة طويلة وبعد ان غابت الشمس في الأفق، قالت سمالا: «انني... سعيدة... سعيدة جداً... لدرجة انني خائفة!»

فقال لها الدوق بابتسامته المطمئنة: «يجب ان لا يتملكك الخوف من جديد. سأحميك وساعتني بك حتى آخر يوم في حياتي.»

«الذي يقلقني ويشغل بالي، ان كل شيء رائع وبهيج. لقد رجوت أن تحبني ولو قليلاً... لأنني احبك كثيراً، وتراني الآن يصعب علي ان اصدق... بانك تبادلني الحب كما تقول.»

أجابها الدوق ممازحاً: «انه أمر ارغب جداً ان اوضحه لك، يا عزيزتي، فأمامنا وقت طويل لنقوم بذلك، كما ان هناك الكثير من الاشياء لنقوم بها معاً.»

فقالت سمالا: «هذا ما كنت اريد ان اسمعه منك... لكنني كنت خائفة جداً... خائفة من ان تجدني مملة وتافهة، ولا استطيع ان املأ حياتك بهجة كما يفعله الآخرون.»

تذكر الدوق ان هذا ما كان يعتقده بها قبل ان يتعرف عليها، لكن الآن يبدو ان كل هواجسه من هذا الزواج، قد اختفت وزالت عن تفكيره.

ان كل ما بامكانه ان يفكر به الآن، انها له، ولا احد آخر في هذا العالم يمكنه ان يسعده بوجوده إلى جانبه كما هي.

ثم قال لها: «سآخذك بعيداً عن هنا، حالما نشعر باننا على استعداد للسفر إلى احد منازلي الهادئة الذي لا يمكن لأحد ان يزعجنا فيه.»

هتفت سمالا بسعادة ثم قالت بصوت منخفض: «لقد نسيت... شيئاً.»

«ما هو؟»

«السباق في اسكوت... في الأسبوع المقبل.»

ضحك الدوق ثم قال: «وانا نسيت ذلك حقاً، لكن ذلك غير مهم، لأنه يمكنني ان ارسل جيادي وآمل ان يفوزوا بسباقات عديدة ومن ضمنها كأس السباق الذهبي.»

نظرت سمالا إليه غير مصدقة وقالت: «هل حقاً تعني ذلك؟»

أجاب الدوق بحزم: «طبعاً، فأنا ذاهب لأقضي شهر العسل.»

فقالت سمالا بنبرة متقطعة: «الآن... عرفت... بانك تحبني.»

فقال الدوق: «ولن اجعلك تشكين بذلك يوماً.»

لقد كان في نظرها ذلك الفارس المغوار، تذكر

ذلك بينما كان ينظر في وجهها البريء، ثم قال: «اعرف الآن يا عزيزتي بأن زواجنا ليس له مثيل على هذه الأرض، وعلينا ان نحافظ عليه بكل ما عندنا من قوة.»

حتى وعندما قال ذلك، شعر بالغرابة من نفسه لتفوهه بمثل هذا الكلام، لكنه كان نابع من قلبه.

فهتفت سمالا: «احبك... احبك!»

تمت